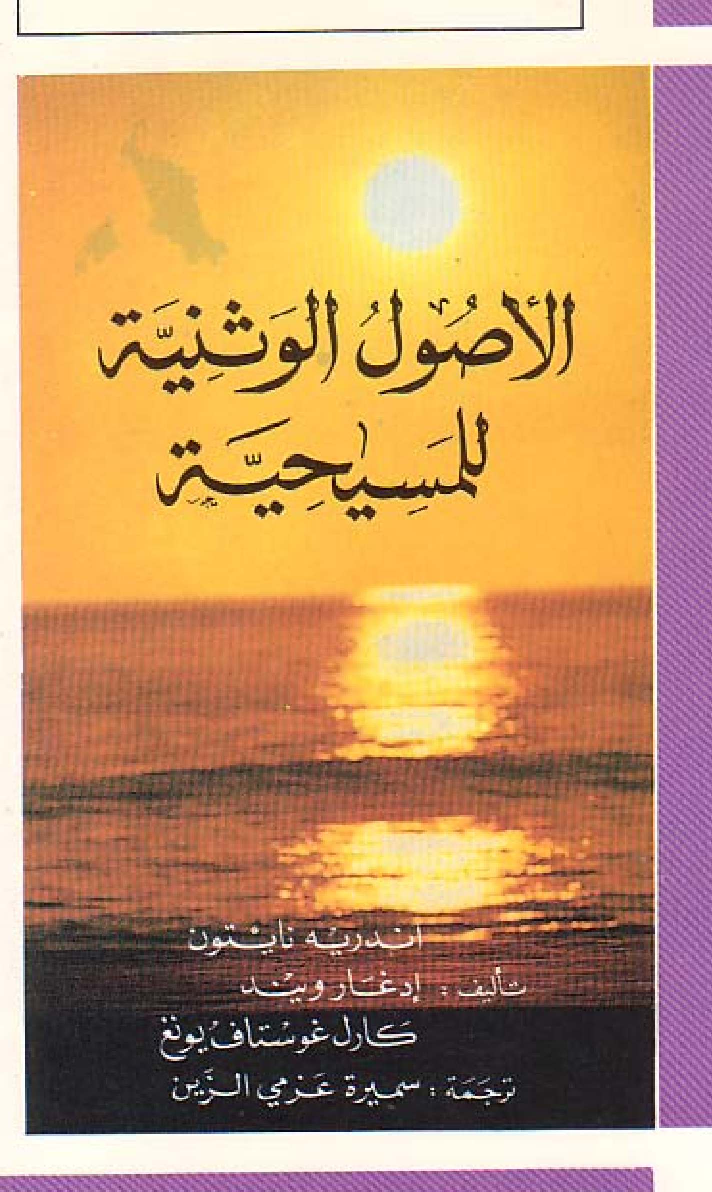
من أجل الحقيقة

(٤)



الأصول الوثنية للمسيحية

تأليف : اندريه نايتون
إدغار ويند
كارل غوستاف يونغ
ترجمة : سميرة عزمي الزين

منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية

مِنْ أجْل الحَقيقَة (٤)

الأصُول الوَثنِيّة للمَسِيحِيّة

أندريه نايتون
تأليف : إدغار ويند
كارل غوستاف يونغ

ترجمة : سميرة عزمي الزين

منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

هذا الكتاب الرابع من سلسلة « من أجل الحقيقة » شهادات ثمينة قدمها لنا نخبة من ألمع مفكري الغرب . إنهم ينتمون إلى بلدان مختلفة ومذاهب شتى ، ويتناولون المسيحية من منطلقات علمية متنوعة ، لكنهم جميعاً يخلصون إلى نتيجة واحدة هي :

« إن المسيحية التي يؤمن بها مسيحيو اليوم ديانة مختلفة عما جاء به السيد المسيح عليه السلام » .

وأجمع هؤلاء المفكرون أن أركان هذه المسيحية الجديدة وعقائدها وصلواتها وشعائرها تأثرت أو تحدرت من الديانات الوثنية التي كانت سائدة قبل ظهور المسيح عليه السلام أو في أيامه . وقد نقلها المؤمنون الجدد من دياناتهم الوثنية فأقرّتهم عليها الكنيسة ، ثم تبنتها وجعلتها رموزاً تأويلية ملفّقة ترضيهم وتلبس على غيرهم .

والمفكرون النخبة الذين يتناولون ديانتهم المسيحية تاريخياً أو نفسانياً ، أو من وجهة نظر مقارنة هم في الأصل مسيحيون ، وُلدوا في أسرة مسيحية ، ونشأوا في مجتمع مسيحي ، وتعلموا في المدارس والمعاهد والجامعات المسيحية . وليس هناك ما يدل أبداً على أنهم

تأثروا أو تبنّوا منطلقات النقد القرآني للمسيحية ، بل ليس هنالك ما يشير إلى أنهم تناولوا هذه الديانة من زاوية إيمانية عقائدية محازبة مع المسيحية أو ضدها ، فهم لم يكونوا في بحوثهم ودراساتهم الجليلة إلا علماء ، ولم يبتغوا إلا وجه العلم . ولهذا فإن التقاء النتائج التي توصلوا إليها مع منطلقات النقد القرآني للمسيحية أمر ذو أهمية علمية وتاريخية وإنسانية .

والقارىء الذي يبحث عن هذه النتائج المُرضية في ثنايا هذا الكتاب ، ينبغي له أن يعرف أن هؤلاء المؤلفين اللامعين الذين كشفوا عن الجذور الوثنية للعقائد والأركان والشعائر المسيحية بما يتفق كله أو جله مع النظرة الإسلامية ليسوا مفكرين مسلمين ، وهذا ما يعطي شهاداتهم ونتائجهم رجاحة وتوثيقاً ، لكنه يحلهم من حرج الإشارات والاستشهادات ، بنصوص من الأناجيل أو من مؤلفات آباء الكنيسة التي يراها المسلم خالية من الذوق منافية للأدب مع الله سبحانه أو مع رسوله المسيح عليه الصلاة والسلام .

بعض الاستشهادات المنقولة من العهد الجديد ورسائل من يوصف بالرسل أو من نصوص آباء الكنيسة واللاهوتيين ، وبعض الاشارات الشائعة في الأعراف والتقاليد والشعائر (الطقوس) المسيحية تتحدث عن « بنوّة » المسيح عليه السلام أو عن صلبه أو موته أو بعثه من القبر ، وحتى عن إرساله إلى جهنم ، كما يتحدث بعضها عن أبوة الله (سبحانه عما يصفون) أو عن مشاركته ، أو غير ذلك مما يمجه العقل وينكره الذوق ويتنافى مع ما جاء به المسيح عليه الصلاة والسلام .

والواقع أن كل هذه الشواهد والاشارات التي أوردها المؤلفون إنما

تخدم هدفاً واحداً سعوا إليه جميعاً ، وهو إثبات أن كل هذه العقائد والأركان والشعائر ، بدءاً من « بنوّة » المسيح وصلبه وموته ، وانتهاءً بأبوّة الله ومشاركته ، وما ترتب على ذلك من تثليث وفداء وخلاص قد تحدرت إلى المسيحية من الديانات الوثنية السائدة قبل ظهور عيسى عليه السلام وفي أيامه ، وإن دينه شيء مختلف عنها . ﴿ **فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته . أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله . قالوا ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين** ﴾ سورة الأعراف آية ٣٧ .

مؤلفنا الأول **أندريه نايتون** من ألمع علماء التاريخ في فرنسا ، ولقد أمضى أكثر من ثلاثين عاماً في تدريس « علم الأديان المقارنة » في جامعات فرنسا ، وعكف ثلاث سنوات على تأليف كتابه « المفاتيح الوثنية للمسيحية » الذي اعتمدنا عليه في نقل هذه الشهادة الثمينة إلى قراء العربية من مسلمين ومسيحيين ، فالكتاب أصلاً مكتوب للقارىء المسيحي الفرنسي ، ولهذا فإن المسيحي العربي أولى بقراءته من غيره .

ثمة ما لا بد من الاشارة إليه والتنبيه عليه ، وهو أن « المسيحية » التي ترد في تضاعيف النصوص ـ ما لم تخصص ـ هي المسيحية التاريخية التي انشقت عن مسيحية السيد المسيح عليه الصلاة والسلام . وبالتالي فإن كل ما يرتب على نقد هذه المسيحية لا يطال مسيحية المسيح عليه السلام ولا يشملها . وهذا ما لا بد من تمييزه . المسيحية التي يُشار إليها هنا هي المسيحية التاريخية التي تطورت عقائدها على مر الأزمان والعصور . وهي بكل تأكيد مختلفة عن التعريف الإسلامي للنصرانية ، وهي الرسالة التي دعا إليها عيسى عليه السلام وتضمنت

تعاليمها في إنجيله . وإذن ، لا رسالة عيسى عليه السلام هي المسيحية التي يتحدث عنها المؤلفون ـ إلا حين يخصصون ، ولا إنجيله هو المعني بنقدهم أو نقضهم . إن هذا النقد يتوجه إلى الوجه التاريخي من هذه الديانة التي صارت تلفيقاً عجيباً من عقائد الوثنيين والغنوصيين و« فرمانات » رجال الكنيسة ومجامعهم مما يتبرأ منه المسيح عليه السلام : ﴿ **قال إني عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبياً ، وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً . وبرّاً بوالدتي ، ولم يجعلني جباراً شقيّاً . والسلامُ عليَّ يوم ولدتُ ويوم أموتُ ويوم أُبعثُ حيّاً . ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون . ما كان لله أن يتّخذ من ولدٍ سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كنْ فيكون** ﴾ سورة مريم الآيات ٣٠ ـ ٣٥ .

وكما ستؤكّد لنا شهادات المؤلفين فقد كان للوثنية قسط وافر في بناء هيكل المسيحية الحالية ، وفي تطورها عبر العصور . بل إنهم جميعاً يعتقدون أن فهم هذه المسيحية غيرُ ممكن إلا بالعودة إلى ديانات الشرق الأوسط القديمة في فلسطين وسورية ومصر وفارس وبلاد الرافدين ، وبدراسة العبادات التي كانت تُعبد والشعائر التي كانت تُرفع مما نقله المؤمنون الجدد وأقره آباء الكنيسة . ثم إن اليهودية التي كانت سائدة في ذلك الزمان ليست بيهودية موسى عليه السلام ولا ديانة الأنبياء اليهود بل تأثرت بالأصول الوثنية الواضحة التي انتقلت إليها من بابل وآشور وفارس . وقارىء أدبيات هذه الوثنيات القديمة لا يستطيع أن يتجاهل مدى التأثير الذي تركته الوثنيات القديمة في العهد القديم أو ما يُسمى بالتوراة . إن كثيراً من نصوص هذا العهد القديم نقل حرفي ، أو سرقة كاملة من أدبيات هذه الديانات على طريقة اليهود في

اللصوصية التقليدية . إن المسيحية الحالية ، كما يقول هؤلاء الكتّاب دين مستحدث لملم أشتاته من هنا وهنا ، ولا علاقة له بديانة السيد المسيح . لكن الكنيسة سايرت ومارت وداهنت ولفقت مسيحيتها على هواها ومصلحتها .

كانت الكنائس تُقام في المعابد الوثنية نفسها ، وكانت تمارس العبادات والشعائر القديمة في هذه المعابد الوثنية وتعطيها رموزاً مسيحية . فالتجسيد مثلاً ، كما يقول مؤلفنا أندريه نايتون عقيدة وثنية كانت شائعة في أساطير وقصص الشعوب الوثنية القديمة . معظم السلالات الحاكمة في الصين كانت تعتبر نفسها من نسل إلهي . وكذلك كان حال ملوك سومر ومصر الفرعونية . ولقد انساق بعض آباء الكنيسة وراء هذه الوثنيات القديمة إلى درجة أن القديس جيروم قال : « إن المسيح وُلد في المغارة التي وُلد فيها أدونيس » . أما عقيدة « البنوّة » فقد كانت سبباً في انفضاض اليهود عنها ، فهم برغم كل ما أصاب ديانتهم من تحريف لم يستطيعوا أن يستذيقوا فكرة « ابن الله » التي كانت شائعة في الوثنيات القديمة كأبناء توت وبتح ورع في مصر . أما أبناء الوثنيات القديمة فقد استهوتهم الفكرة ولم يجدوا فرقاً كبيراً بين ديانتهم القديمة وبين ما تدعوهم إليه الكنيسة .

الفيلسوف المفرنسي أرنست رينان قال : إن التأثير الفارسي كان كبيراً جداً على المسيحية ، خاصة في الثنويات ، وإن هناك تشابهاً بين المسياء المسيحي ونظيره الفارسي . وقد أشار رينان أيضاً إلى أن الوثنيين المسيحيين قد أضفوا على المسيح صفات المعبود الوثني أدونيس .

أما بالنسبة لعقيدة التثليث فمن الغريب أن الأناجيل لا تذكرها

بـوضوح . إننـا نعثر عـلى ذكر هـذه العقيدة بكـثرة في رسائـل بولس الموصوف بالرسول . والواقع أن هذه العقيدة لم يعلن عنها إلا في القرن الـرابع الميـلادي عـلى لسـان اثنـاس السكنـدري أثنـاء مجمـع نيقيـة (٣٢٥ م) . والتثليث عقيدة وثنية قديمة جـداً ، فقد كـانت الأقانيم مظاهر مختلفة للقوة الإلٓهية العظيمة . المصريون مثلاً كانوا يعتقدون أن للإلٓه توت سبعة أقانيم وكانـوا يقولـون أنها لشخصية إلٓهيـة واحدة . كذلك كان لمزدك الفارسي ست كليات . أما أتباع مـاني فقالـوا : إن الأقانيم تنبعث من الله باستمرار . وواضح أن المسيحية استقت عقيدة التثليث عن المصريـين الذين كـانـوا يعبـدون الثـالـوث أوزيـريس ، إيزيس ، حورس ، وهو التثليث الذي طوره الأفلاطـونيون لاحقـاً ، وتبنته الكنيسة .

من أشهر الثواليث : ميترا ، فارونا ، أريامـان في الهند . أهـورا مزده ، ميترا ، أناهيا في إيران . سين ، شمش ، عشتـار في بابـل . زيوس هيرا ديونيزوس في اليونان . جوبيتير ، جونون ، مينـيرفا عنـد الرومان . والـلائحة طـويلة ومنها ظهـر ثالـوث الآب والابن والروح القدس عند الكنيسة المسيحية .

على صعيد الأعياد نافست الكنيسة المسيحية كل الوثنيات القديمة في كـثرة أعيادهـا وتنـوعها وبهرجهـا . وقد تم تـوقيتُ هذه الأعيـاد والإحتفال بها في أيام الأعياد الوثنية القديمة نفسها ، ويبدو أن الوثنيين قد أحبطوا كل جهدٍ لإنتزاع المظاهر الوثنية عن ديانتهم مما أدى إلى تبني الكنيسة لتقاليدهم وشعائرهم وإضافتها إلى ديانتها . وهذا مـا حصل في عيد الميلاد مثلاً حيث كانت الاحتفالات بنهاية المسيح عليه السلام أهم من الاحتفالات بميلاده . والواقع أن تاريخ ميلاد السيد المسيح لم

يُعلن إلا في عام ١٣٠ . وقد اختير له يوم ٢٥ ديسمبر / كانون الأول ، وهو اليوم الذي درج فيه الوثنيون على الاحتفال فيه بالعيد الشمسي الكبير الذي يتم فيه الإنقلاب الشمسي الشتائي في التقويم الرومي القديم . وهذا اليوم هو ما كان فيه الوثنيون يحتفلون بعيد ميلاد ميترا أيضاً . بذلك جمعت الكنيسة كل هذه الأعياد وأرضت كل أصحابها . . . حتى بطريقة الاحتفال . فالاحتفال بعيد الميلاد يذكرنا بأعياد ميترا وأدونيس . وهذا ما حصل في الأعياد الكنسية الأخرى مثل عيد العماد (الغطاس) وأحد الشعانين الذي هو صورة عن الاحتفالات الوثنية بموت أدونيس وبعثه .

والكتب التي نستشهد بها مختلفة في طبيعتها وأسلوبها . فإذا كان كتاب أندريه نايتون تاريخياً مقارناً فإن كتابنا الثاني « الأسرار الوثنية في عصر النهضة » **لادغار ويند** استاذ التاريخ الفني في جامعة أكسفورد من أهم الكتب التي تناولت عملية دس الرموز الوثنية في الديانة المسيحية . وقد أثارت ملاحظات البروفسور ويند عن إنبعاث أسرار الديانات الوثنية القديمة في الديانة المسيحية عاصفة من ردود الفعل ، نظراً لأهميتها العلمية التاريخية . ولكن بما أن كتابه غني وكبير جداً (أكثر من ٦٠٠ صفحة) فإننا لم نقتبس منه إلا فقرات عاجلة عن التثليث كما سيرى القارىء .

يبقى الكتاب الثالث **لكارل غوستاف يونغ** الذي يُعتبر أهم علماء النفس بدون منازع وهو « علم النفس والديانة الغربية » . وقد اخترنا منه ما كتبه عن عقيدة التثليث وعن القداس . والواقع أن معظم ما دبجه يونغ عن الديانة المسيحية يستأهل الإختيار ، غير أن طبيعة كتابته ليست ميسرة ولا تتناسب مع التيسير الذي نتوخاه من هذه

السلسلة . ويتناول يونغ موضوعه من وجهة نظر نفسانية . وفي دراسته لعقيدة التثليث قارن بين عبادة الثالوث البابلي والمصري واليوناني والثالوث المسيحي . وقد تبين له أن التثليث من أقدم العقائد الوثنية وأعرقها . وفي اعتقاده بعد تحليله لفكرة الأعداد الثلاثة عند فيثاغورس وتأثيرها على الكنيسة المسيحية أن التثليث ليس فكرة مسيحية أساسية ، بل جاء من الأديان الوثنية القديمة . إن واقع التثليث في رأيه مستمد من مصر وبابل وآشور ، أما صورته المنطقية فمستمدة من الأفلاطونية .

ويتساءل يونغ : لماذا لم تكن السيدة مريم عليها السلام ثالث الثلاثة بدلاً من الروح القدس ؟ ويرى أن ذلك عائد إلى التأثر بأديان مصر القديمة التي ترفض أن تكون المرأة عنصراً في الثالوث . وهذا في رأيه ما انتقل إلى المسيحية حيث نرى في الإنجيل موقفاً غريباً جداً ينسبه يوحنا إلى السيد المسيح عليه السلام زوراً وبهتاناً تجاه أمه ، فهو يظهر في الإنجيل ينهر أمه وينكرها ولا يعترف بها .

وتقوم نظرية يونغ على أن عقائد المسيحية قامت على ما هي عليه بالمثال الأصيل . إن الأمثلة الأصيلة للعقائد المسيحية موجودة في ديانات فارس ومصر واليونان والرومان . هكذا أرجع يونغ التثليث إلى أصوله الوثنية ، كما أرجع القداس المسيحي وطقوسه إلى الوثنية التي حاكاها في أكل اللحم وشرب الدم . وهكذا فعل أيضاً بالنسبة للتجسيد وتأليه المسيح عليه السلام مما ينكره عليه الصلاة والسلام : **﴿ وإذ قالَ اللهُ يا عيسى ابنَ مريمَ أأنتَ قلتَ للنّاسِ اتّخذوني وأمّي إلٰهَيْنِ من دونِ اللهِ قالَ سبحانَك ما يكونُ لي أنْ أقولَ ما ليسَ لي بحقّ . إنْ كنتُ قلتُهُ فقد علمتَه . تعلَمُ ما في نفسي ولا أعلمُ ما في**

نفسكَ إنّك أنتَ علّام الغُيوب . ما قلتُ لَهُم إلاّ ما أَمرتَني بِهِ أَنِ اعبُدُوا اللهَ ربي وربَّكم وكنتُ عليْهِمْ شهيداً ما دُمتُ فِيهم ، فلمّا توفَّيتَني كنتَ أنتَ الرقيبَ عليْهِم وأنتَ علىٰ كلّ شيءٍ شهيدٌ ﴾ .

سورة مريم ١١٦ ـ ١١٧ .　　　　صدق الله العظيم

الناشر

مقـدِّمـة

بقلم: أنـدريـه نايـتون

. . . لم تعترف الكنيسة الكـاثوليكيـة حتى يومنـا هذا بجـذورها وأصـولها الـوثنية ، فهي كـما يظهـر لا تـريـد أن تحـاور المـوتى أو أن تناظرهم ، ذلك لأن هذه الأديـان الوثنيـة التي استقت منها الكنيسـة عقـائدهـا قد انـطفأت وزالت من الـوجود . أمـا مؤرخ الأديان فـإنه بحاجة لازمة إلى العودة إلى الوثنية إذا أراد أن يدرس مسيحية اليوم .

كان الكاتب المؤرخ الفرنسي إرنست رينان أول من درس الجذور الوثنية للمسيحية . وقد واجهت أعماله يومها في القـرن التاسـع عشر معارضة شديدة ، فقد كان علم تاريخ الأديـان في نشوئـه ، ولم يكن التصدي للمتعصبين بأمرٍ يسير .

ولقـد آن لنـا الأوان اليـوم أن ننـظر إلى المسيحيـة عـلى ضـوء الدراسات المستجدة عن الوثنية ، وأن نقيم تلك العلاقة الخفية القوية بينهما . وإننا لنقر منذ الآن بأن عملنا شديد الحساسية لن يقبله الناس بسهـولة . عـلى أننا نتمنى أن يكـون هذا العمـل درساً في التسـامح وبرهاناً على التفاعل بين الأديان (التي قامت عليها عقيدة الكنيسة) .

غير أننا نعترف بأن هـذا العمل سيـواجه الكثـير من اللبس والتأويـل والإدانـة ، بل سنسمـع من يقول لنـا أن « مقـارنـة الأديـان » ليست علمـاً ، ولا يمكن أن تنطبق عليهـا قواعـد العلوم الأخرى . كـذلك سيقول لنا من يقول : إن مقارنة الأديان لا تعتمد البراهـين القاطعـة التي لا تترك باباً للخيال ، وإننا هنا نعتمد المواقف الخـاصة والنـظرة الذاتية .

المسيحيّة والوثنيّة

ثلاثة قرون من الاضطهاد الوثني الشديد للمسيحية . ثلاثة قرون من الاضطهاد الروماني بخاصة . ثلاثة قرون كانت فيها ردة فعل المسيحية قوية عنيفة ، لكنها لم تكن تعني أبداً أن هنالك تناقضاً كبيراً واضح المعالم بين الطرفين . وعلى الرغم من أن كثيراً من الناس يعتقد بأن هنالك تناقضاً فإن الحقيقة مختلفة جداً ، والمظاهر خادعة مضلة . لقد كانت أشبه بظلم ذوي القربى . ومثل هذا الظلم أشد مرارة وأشرس وأعمق جرحاً وإيلاماً . وحقل الدين يضرب لنا أمثلة كثيرة على ظلم ذوي القربى . أليس الصراع الدامي بين البروتستانت والكاثوليك دليلاً على ذلك ؟

ونحن في دراستنا لتاريخ الأديان اليوم لا نستطيع أن ننكر ما بين المسيحية والوثنية من صلات وثيقة وأواصر متينة ، بل إنه يلزمنا ويجب علينا أن نبين كيف أن المسيحية هذه تحدرت من الوثنية وصار لهما نسب واحد وأصل مشترك . وهذا أمر منطقي طبيعي جداً لدى مؤرخ الأديان . فليس هنالك دين منبتّ الجذور لا يمت بصلة إلى دينٍ آخر . ولقد سبق للمؤرخ الديني الشهير « ألفرد لوازي » أن قال : إنه ليصعب علينا أن نرى ديناً مستقلاً خالصاً من العلاقة مع الأديان

الأخرى تماماً كما يتعذر وجود شعب نقي الدم خالص لم يمتزج بشعوب أخرى على مدى التاريخ . بينما يقول العلامة البحاثة في علم الأديان « مركيا ألياد » : ليس هناك دين جديد تماماً يلغي أو ينسخ كل ما أتى به الدين الذي سبقه . إنه يجدده ، ويصهره ، ويؤكد أركانه القديمة الجوهرية » .

لم يعد يكفي دارس تاريخ الأديان أن يشير إلى العلاقة الوثيقة بين الوثنية والمسيحية ، بل ينبغي عليه القول : إننا لا نستطيع أن نفهم مسيحيتنا حق الفهم إذا لم نعرف جذورها الوثنية ، فقد كان للوثنية قسط وافر في تطور الدين المسيحي ، وهو قسط غير مباشر ولا منظور ، وإذا صح أن لليهودية تأثيراً على المسيحية وكانت أساساً جوهرياً للنظرة المسيحية فإن علينا أن ننبه إلى أن اليهودية نفسها أصيبت بالتأثيرات الوثنية من فارس وبابل وخضعت لنفوذهما عندما كان اليهود في المنفى . غير أن هناك تأثيراً خاصاً مباشراً أصاب المسيحية ، وهو جوهر موضوعنا . لقد كان للوثنية اليونانية والفارسية هيمنة على المسيحية ، وكذلك كان للوثنية في عموم الشرق . هكذا تألف دين جديد لملم أشتاته من هنا وهناك ، وكان كمن يصبّ خمراً عتيقاً في جرار جديدة . ولربما أننا نحرّف هنا قول إنجيل لوقا (٥ ـ ٣٩) : « ليس أحد إذا شرب العتيق يريد للوقت الجديد لأنه يقول العتيق أطيب » .

وكان مؤرخ الأديان العلامة ارنست رينان قد قال : « إن الدراسات التاريخية للمسيحية وأصولها تثبت أن كل ما ليس له أصل في الإنجيل مقتبس من أسرار الوثنية » . ونحن لا نُبالغ إذا قلنا أن ما يُعرف بالأسرار الدينية في المسيحية مستوحى من الأديان الوثنية القديمة .

وعلينا أن نقبل بواقع هذا التأثير الوثني كما نقبل - على الأقل - بما يقوله المبشرون المسيحيون عن أديان وميثولوجيات الشعوب البدائية في أميركا وأوقيانوسيا . ودراسة المسيحية تثبت أن الآلهة الوثنية لم تمت بعد . ولا شك في أن العلامة البلجيكي « فرانز كومون » قد عنى ذلك حين عنون كتابه الشهير حول تاريخ المسيحية بعنوان : « لا جديد تحت الشمس » .

وينبغي لنا الآن توضيح السبل التي سلكتها المسيحية والتي أتاحت للوثنية بأن تُساهم هذه المساهمة الكبيرة في تأسيس أركانها . إن أصحاب النقل المباشر وغير المباشر عن الوثنية معروفون . ويجب علينا أن نتذكر دائماً أن معظم الذين آمنوا بالمسيحية في بداياتها لم يكونوا يهوداً بل كانوا عبدة أصنام . ولا بد من الإشارة أيضاً إلى أن هؤلاء المؤمنين شهدوا فترة عصيبة محتدمة تساعد على تلفيقات كثيرة . ومما لا شك فيه أن هذه المسيحية وضعت المؤمنين بها على دروب الوثنية القديمة . ولعل أهم هذه الدروب الوثنية يتمثل بالإهتمام بالخلاص عن طريق مخلص أو وسيط . أما الذين لفقوا عقيدة الخلاص فليسوا أولئك الكتّاب أو واضعي النظريات الدينية والآراء المجردة المعقدة بل هم سواد الناس من أصحاب الفطنة المتوقدة والمفاهيم البسيطة الساذجة التي كانت توحد بعفوية وصدق غريزي بين مجمل التيارات الدينية في تلك الأيام . إن الخيال الشعبي هو الذي أقام هذا الصرح . أما العلم الديني فقد جارى وداهن وغيّر أركان الدين وعقائده . وهنا أيضاً نستشهد بما قاله « ألفرد لوازي » مؤرخ المسيحية : « إن الأديان تعيش في أعماق الناس ، وإن حياتهم الخاصة الصاخبة هي التي تعطي هذه الأديان شكلها » .

ومسألة التقويم دقيقة مرهفة ، فنحن مضطرون إلى السؤال عن حدود الوثنية التي نجدها في المسيحية وعن أنواعها وصورها . إننا إذا قارنا بين المسيحية والوثنية فإننا لن نجد تطابقاً كاملاً أو دائماً . وهذا ما يدفعنا إلى القول بأن بعض الخلافات والفروقات قائمة بالضرورة . ولربما يقول من يقول بأن المسيحية أخذت الشكل الظاهري فقط من تلك الفترة الدينية . وإن ذلك أمر طبيعي جداً ، ما دام جوهرها الحق مغايراً لمظهرها الوثني ، لكن من السهل علينا أن نرد عليه بأنه ليس هناك من دين ينسخ نسخاً كاملاً ، أو ينقل عن الدين الوثني الآخر نقلاً منتظماً حرفياً شاملاً . إننا لم نلحظ ذلك في تاريخ الأديان . وعلينا أن ننبه هنا إلى أن العمل الباطني للتصورات والمفاهيم الشعبية هو الذي بدّل الأعماق الدينية للمسيحية المعاصرة وجددها . وإذن فإنه من غير المجدي إضاعة الوقت في مناقشة التفاصيل الصغيرة حين تكون الروح العامة هي المهيمنة . ومن هنا نستطيع القول أن المسيحية بوجهها العام تبدو تلفيقية وثنية ، وإنها برغم تنقيحها تبقى تلفيقية .

وهنا أُقدم لمحة سريعة لبعض التأثيرات الوثنية الأساسية التي ساهمت في تشكيل هذه الظاهرة الدينية الكبيرة . لقد جاء التأثير الإيراني من الديانة المزدكية الوثنية ومن أسرار معبودهم ميترا . وكان المؤرخ الديني الفرنسي ارنست رينان يرى أن هذا الدين الايراني كان منافساً خطيراً للمسيحية في أيامها . وهناك أيضاً التأثير الفرعوني ، خاصة أسرار إيزيس التي كانت حميدة الخصال رفيعة الأخلاق والتي رأى فيها ألكسندر موريه مقدمة للدين المسيحي الذي جاء بعدها . ويأتي بعد ذلك التأثير اليوناني ، وخاصة منه الأورفية التي تشابه روح المسيحية تشابهاً كبيراً كما ذكر ذلك الكاتب المؤرخ أندريه بولانجيه ،

ويضاف إلى الأورفية ديانة ديونيزوس وأسرارها ، والفيثاغورية التي ركز بعض العلماء مثل إيزيدور ليفي على تشبيه فيثاغورس بما آلت إليه شخصية المسيح [عليه السلام] . ثم هناك الأفلاطونية التي يعترف بتأثيرها آباء الكنيسة أنفسهم مثل القديس أوغسطين . والمعروف أن الأفلاطونية هي جوهر الميتافيزيقا اليونانية المصرية التي ازدهرت في الاسكندرية ، ثم صارت جوهر الميتافيزيقا المسيحية . بعد ذلك نجد الغنوصية الملفقة أصلاً . وقد كانت الغنوصية هي التي أدخلت إلى المسيحية كثيراً من الأديان الوثنية الشرقية . وهنا لا بد من القول ـ على عكس ما يُشاع أو ما يكتبه بعض الكتّاب المسيحيين ـ أن الغنوصية ليست تياراً مسيحياً مهرطقاً ، فهي أقدم من المسيحية ، وليست بالتالي تياراً منها ، أو هرطقة . بل إن العكس صحيح ، فإنجيل يوحنا أصلاً هو نقل للفكر الغنوصي ، بل هو غنوصية ذات وجه مزدكي إيراني ، خاصة حين يتحدث عن صراع نور الكلمة مع الظلمات ، أو صراع الحق مع الكذب . ثم إن بولس نفسه استعار واستخدم الكثير من اللغة الغنوصية ، وإن كان قد صاغها بطريقة مغايرة .

في المقابل ، لا بد لنا نحن المؤرخين من أن نقول ما قد يثير اعتراض المعترضين ونعترف بأن الكنيسة لم تظهر عداءها التام للوثنية ، فقد كانت الكنائس تُقام على أنقاض المعابد الوثنية ، بل كثيراً ما نجد المسيحيين يكتفون « بتطهير » المعابد القديمة أو إضافة بعض اللمسات عليها من أجل تحويلها إلى كنائس . ومع أن هذا كان يعني انتصاراً مسيحياً فقد كان أيضاً يشكل شعوراً واعياً تقريباً بأن جذور الدين الجديد تشتبك مع جذور الدين الوثني الذي سبقه . وإننا لنرى بعض كتّاب المسيحية في تلك الفترة مثل أوزيب يكثرون من الاستشهاد

بالكتّاب الوثنيين القدامى لمثل تلك الأسباب الواعية تقريباً. وسنرى لاحقاً كيف أن الكنيسة ابتلعت بعض العناصر الوثنية ، لكنها أضفت عليها طابعها الخاص ، وذلك لاستقطاب ما يمكن استقطابه من عبدة الأصنام ، كذلك فإنها بذلك أرادت تعزيز نفسها وابتلاع العقائد القديمة المترسخة ، وهذا ما أدى إلى دخول عناصر وثنية جديدة على المسيحية . غير أن نتائج هذه السياسة كانت خطيرة جداً ، وكانت وراء ظهور حركة الإصلاح البروتستانتي .

وأخيراً نجد هذه الوثنية في الفن ، كتزيين المقابر بالطواويس والدلافين وشتى أنواع الطيور والأسماك . وقد كانت هذه جميعاً رموزاً وثنية كمثل رموز أورفيوس الذي يذكر غناؤه الساحر بتبشير المسيح أو كرمة ديونيزوس التي تزين القبور . إننا نجد على الأضرحة الحجرية صورة المسيح الذي يظهر بصورة معبود . ولقد ظلت مثل هذه النزعة منتصرة سائدة إلى وقتٍ متأخر كما نجد في عصر النهضة رسوماً لميكائيل انجلو الفنان الإيطالي الشهير ، وخاصة ما رسمه على سقف كنيسة السستين كالعرافات الوثنيات اللواتي جئن يتنبأن بظهور المسيح ، وفي كاتدرائية « إكس آن بروفانس » نجد صنم المسيح منحوتاً ومحاطاً برموز وثنية كالقمر والشمس ، وهو واقف بينهما .

إننا قدمنا التأثيرات الوثنية على المسيحية في هذه الإفتتاحية بصورة سريعة عاجلة ، لكننا نريد أن نتساءل ونسأل القارىء معنا : هل هنالك من يستطيع دراسة هذا الموضوع بدون تحيز؟ إن هذا صعب جداً ، إذ لطالما أثار هذا البحث حماسة شديدة وردود فعل عنيفة ، خاصة وأن البحث ليس علمياً تماماً ، بل يعتمد على قسطٍ من الحدس .

وهنالك قضية أخرى نتساءل عنها وهي إننا هل نستطيع أن نفهم المعنى العميق للأحداث الدينية في العصور القديمة بوضوح وشمولية ، خاصة وإن تلك العصور تختلف عن عصرنا اختلافاً كلياً . إننا نلتقي هنا أمام آراء مختلفة جداً . لهذا فإنني أقول : لماذا لا نعود إلى النصوص الوثنية القديمة ونصوص المسيحيين الأوائل مثل القديس جستين الذي يعترف بوجود أفكار جوهرية متشابهة بين المسيحية والوثنية . لقد كان مثل هؤلاء الكتّاب في وضع أفضل من وضعنا ويستطيعون تقويم الأمور بصورة أفضل .

إضافة إلى ذلك فإن بحثنا شديد الصعوبة لأن المسيحيين الأوائل أبادوا بانتظام معظم الكتب الدينية الوثنية . ويكفينا أن نذكر هنا المشهد الشهير في « أعمال الرسل » حين يذكر القديس بولس كيف أحرق المؤلفات الوثنية في أفسوس اليونانية . ولعل أطرف ما في هذا الموضوع هو أن المؤلفين المسيحيين كمثل أوريجين قد حفظوا لنا معلومات نادرة ، بل مختارات من الكتب الوثنية، واستخدموها في دفاعهم .

ولا يستطيع عالم تاريخ الأديان ، أو الباحث في المقارنة بينها أن يرفض واقع التشابه بين المسيحية والوثنية رفضاً كلياً ، ولا ينبغي له أن يتحجج بالإيمان والوحي والحدس المطلق للقول بأن المسيحية لا تشوبها شائبة من الوثنية . لقد وصلت الأمور ببعض الكتّاب المسيحيين إلى كتابة إدعاءات لا يقبلها العقل أو المنطق فزعم بعضهم مثلاً أن الوثنية [السابقة على المسيحية] اختراع جهنمي هدفه محاكاة المسيحية . وبما أن مثل هذا الزعم لا يصح تاريخياً فقد قال المؤرخون المسيحيون أن الشيطان هو الذي كان وراء هذه الفكرة .

أغرب من ذلك : أن بعض المؤلفين المسيحيين لم يجدوا حرجاً في

القول بأن الشيطان كان قد اخترع الوثنية على غرار المسيحية التي جاءت بعدها اختراعاً احتياطياً . وهذا لم يحرج القديس جوستين حين تحدث عن سر القربان المقدس ، ولا أزعج كليمان السكندري حين قارن بين الأسرار المسيحية والأسرار الوثنية . وكذلك كان حال فيرميكوس ماتيرنوس حين تحدث عن مجمل ظاهرة الوثنية . ولا شك في أن الوثنيين هم الذين كانوا منتصرين على المسيحيين لمجرد أن لآرائهم التي يقتبسها المسيحيون أسبقية زمانية ـ بذلك نجد الوثنيين يتهمون المسيحيون بأنهم يقلدون شعائرهم ويحاكونها فقد وقتوا « موت المسيح » وصعوده إلى السماء في الفترة الزمنية التي يحتفلون بها بموت الإلّه « أتيس » .

ويعترف اللاهوتيون الكاثوليك في عصرنا ـ بتسامح ـ بالأصل الوثني لبعض التعاليم الكنسية ، لكنهم يعترفون بذلك في معرض الدفاع عن نقاء المسيحية وتفوقها . هكذا نقرأ في كتاب أحد اللاهوتيين الجدد « هـ . لوكليرك » : « إننا على علم بتلك النزعة التي لا تعترف بالطابع الأصيل للمسيحية وتحاول أن ترد أصولها إلى الأديان الوثنية . طبعاً استعار المؤمنون من هنا وهناك بعض التفاصيل الوثنية أنى وجدوها » .

ولهذا الإعتراف من هذا الكاتب الكاثوليكي عواقب خطيرة ، فهو يعني أولاً أننا لا نستطيع أن نرفض « مسبقاً » أن لبعض العناصر الدينية المهمة في المسيحية أصولاً وثنية مشتركة ، خاصة وأن التجربة تدلنا على أن العدوى التي تكون بسيطة في البداية تصبح مع الزمن جامحة جائحة .

وبعض آباء الكنيسة الكاثوليكية يتبنون تفكيراً خطيراً عندما

يحاولون أحياناً أن يبرهنوا على جدة المسيحية ، فالأب دولاهاي يقول : « إن الطبيعة البشرية التي تتصرف وفقاً لمشاعرها الدينية كافية لتفسير ذلك » . والأب الكاثوليكي يقول هذه الجملة بعد اعترافه بتشابه الشعائر المسيحية وشعائر ميترا . أما الكاتب جاكييه فيقول في « معجم علم الآثار المسيحية » ما هو أغرب من ذلك : « إن الشياطين استبقوا الأمر وقلدوا المسيحية في طقوس الأسرار » . وإن بؤس هذه الحجة دليل كافٍ لإثبات التأثيرات الوثنية في المسيحية .

على أن هناك شخصيات مسيحية تحاول نفي أي تقارب بين الوثنية وبين المسيحية ، لا لأسبابٍ فكرية ، وإنما لأسباب عاطفية . فذكر الوثنية وحده يقززهم لأنه يوقظ فيهم تاريخ الوثنية البربري كالتضحية بالأطفال للآلهة ، أو الدعارة المقدسة ، أو صراع الفرسان الدامي . . . إلخ . لكن علينا أن لا ننسى أن الوثنية تغرس جذورها عميقاً ما قبل تاريخ الإنسان البربري ، بينما ظهرت المسيحية في فترة متأخرة عن ذلك . وهنا يجب أن ننبه إلى أن حروب التفتيش التي شنتها الكنيسة الكاثوليكية على المسلمين لم تكن أقل بربرية ، وكذلك الأمر في الحروب الدامية بين البروتستانت والكاثوليك .

ويبقى السؤال : لماذا انتصرت المسيحية إذن وهي تحمل كل هذه العناصر الوثنية ؟ .

إن العنصر الجديد الذي جاءت به كان شديد الأهمية للفقراء يومها ، وهو أن « المخلص الإلّه كان نصف إلّه ونصف إنسان ، وإنه اختلط بباقي الناس ، وتعذب من أجلهم . ثم إنه كان إلّهاً شاملاً ولم يكن إلّهاً محلياً قومياً كآلهة الفرس أو اليونان » .

التجسيدُ والأساطير

ما أُريد دراسته هنا هو طبيعة التحولات الغريبة التي طرأت على صورة المسيح التاريخية .

وأهم تشويه حصل لصورة المسيح تجلى في قضية « التجسيد » الذي يُعتبر السر الذي تتميز به المسيحية . وهذا السر غريب جداً عن التفكير اليهودي . غير أنه ليس في هذه الروايات ما يذكر شيئاً عن « تجسد » أو « تجسيد » . إن مثل هذه الفكرة كانت تُعتبر إدانة وتدنيساً للفكر اليهودي . ألم يكن اليهود يقولون ـ بحسب ما ترويه الأناجيل التي بين أيدينا ـ حين يسمعون المسيح يعلن أنه ابن الله : أنه يجدّف (متى ٢٦ / ٦٤ ـ ٦٥) ؟ والتجسيد بحد ذاته وثنية لأنه يحصر اللانهائي في النهائي . وفي الأناجيل روايات متناقضة جداً حول تجسيد المسيح ، فإنجيل مرقص مثلاً يتجاهل موضوع تجسيد المسيح نهائياً . بينما لا يذكر القديس بولس كلمة واحدة عن كيف تحول المسيح الإنسان إلى إلّه . أما إنجيل يوحنا فإنه يكتفي بالقول ، ولا يقدم أية تفاصيل ، بأن الكلمة صارت جسداً . أما الأناجيل الأخرى مثل متى ولوقا فإنها تقول بأن الإلّه صار جسداً في المسيح ، غير أنها تقدم معلومات خاصة بنسب المسيح فتقول أنه ابن يوسف من نسل داوود .

ونجد في إنجيل لوقا معلومات غريبة جداً عن هذا الإله الـذي صار جسداً ، إذ يصف لوقا كيف بهتت أمه مـريم و« أبوه » يـوسف حين سمعاه يقول في المعبد انه ابن الله .

من أين جـاءت فكـرة تحـول الله إلى إنسـان إذن ، مـا دامت لم تنحـدر من الفكر اليهـودي ؟ إن حياة كـائن آلهي عـلى الأرض أمـر طبيعي جـداً في التفكير الـوثني ، بل إن الـوثني كـان يـرى أن هـذا التجسيد أفضل طريقة لإختراق العالم الإلٓهي الغـرائبي والتعرف عـلى الألـوهة عن كثب . إن نـزول الإلٓه عـلى الأرض على شكـل إنسـان أفضل طريقة للحوار المباشر المرئي بين الآلهة والبشر . لهذا نجد كاتباً مسيحياً مثل القـديس جوستـين لا يتحرج من الكتـابة : « إننـا حين نقول أن الكلمة تجسدت في المسيح من غير إجتماع جسـدي إنما نعني أمـراً أكثر غـرابة من تلك القصص التي تـروي ولادة أبناء زيـوس » (الدفاع عن المسيحية للقديس جوستين ٢١) .

وهكذا إذا ما توغلنا عميقاً في تاريـخ الوثنيـة نجد أن الـوثنيات كانت دائماً حافلة بقصص من هذا النوع : ملك أو زعيم من أصل إلٓهي . إننا نجد في الصين مثلاً أن معظم السلالة الحاكمة كانت من أصل إلٓهي ، كالأمبراطور الأول تشيو ، وهيو تسي ابن إلٓـه السماء من إمرأة فانية ، وهذا عـلى غرار معـظم كبار فـلاسفة الصـين مثل لاو۔ تسو . كذلك كان معظم الملوك السومـريين والحثيين من أصل إلٓهي . وفي مصر كان الفراعنة أولاد إلٓه الشمس آمون رع الذي « اتحد » مع الملكة واتخذ شكل ملك حاكم ، كما تدل على ذلك اللوحات في معبد دير البحري . حتى بعض الحكماء كانوا أولاد آلهة مثل ابن بتاح . أما الإغريق فيقدمون لنا أمثلة صـارت على كـل الألسنة . . . إن الفكـر

اليوناني الذي كان له تأثير كبير على المسيحية أغرق في التفريق بين الروح والجسد وهذا ما لم يعرفه الفكر اليهودي قبل المسيحية . . .

أما ولادة المسيح فقد تعددت الأساطير التي أضافت على الحقيقة التاريخية مسحة من الغرابة . إننا نجد بعض الكتّاب المسيحيين مثل القديس جيروم يقول بأن المسيح وُلد في المكان الذي وُلد فيه أدونيس ، وأن بيت لحم كانت في تلك الأيام تظللها غابة مقدسة تُسمى غابة أدونيس حيث كان الناس يبكون أدونيس عشيق المؤلهة فينوس ، بل إن المسيح وُلد في المغارة التي وُلد فيها أدونيس . واختيار هذه المغارة بالذات (كما يُضيف القديس جوستين أيضاً)دليل آخر على تحويل المعابد وأماكن العبادة الوثنية إلى شعائر وعبادات مسيحية .

وهنالك إشارات أخرى خاصة بملوك المجوس الذين هداهم النجم إلى مهد المسيح عند ولادته ، وهذه إشارة إلى علاقة المسيحية بالزرادشتية ، فنحن نجد في أحد الأناجيل السريانية العربية التي تروي طفولة المسيح رواية تقول : إن مجيء المجوس لرؤية المسيح هي تحقيق لنبوءة النبي زرادشت الإيراني .

وفي رؤيا يوحنا المشحونة بالذكريات الوثنية نقرأ أن المسيح قد خُطف إلى السماء لإنقاذه من التنين الشيطاني » (رؤيا يوحنا ١٢ / ٤ ـ ٥) .

مِن أين جاءت
عبارة "ابن الله" ؟

لم يظهر المسيح في الأناجيل مجرد نبي وحسب بل قيل عنه إنه « ابن الله » ، ثم صار هذا القول من أركان الديانة المسيحية ، غير أننا نذهل فعلاً من ندرة هذه العبارة على لسان المسيح ، فهي لا ترد مثلاً إلا في مقطع من إنجيل يوحنا حين يقول على لسان المسيح لليهود الذين يريدون رجمه : « لأني قلت إني ابن الله » (إنجيل يوحنا ١٠ : ٣٦) . في مقابل ذلك تتكرر هذه العبارة على لسان غيره أثناء الحديث عن تعميده وصلبه .

ماذ تعني عبارة « ابن الله » التي تبدو واضحة جلية لأول وهلة ؟ هل هي عبارة مجازية ؟ إننا نعثر عليها في مزامير داوود حين يقول : « قال لي : أنت إبني أنا اليوم ولدتك » (مزامير ٢ / ٧) . لكن المعنى هنا مجازي بالتأكيد ، ويشير إلى ما يشبه الحماية والرعاية والتبني ، ولا يقصد به حرفية « الولادة » على الإطلاق .

في إنجيل لوقا يحاول لوقا كتابة نسب المسيح ، ويقول إن آدم هو « ابن الله » . وهذه إشارة عارضة إلى أن الله خلق آدم . ثم نقرأ في « رؤيا يوحنا » (٢١ / ٧) : « من يغلب يرث كل شيء وأكون له

إلهاً ، وهو يكون لي ابناً » . ثم نجد مثل هذه العبارة بصيغة الجمع في موعظة المسيح على الجبل من إنجيل متى (٥ /٩) حيث يقول على لسان المسيح : « طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون » . ثم نقرأ في إنجيل لوقا (٢٠ / ٣٦) : « وهم أبناء الله إذ هم أبناء القيامة » . وأخيراً نقرأ في رسالة بولس إلى أهل رومية (٨ / ١٤) : « إن كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله » .

ولنرجع الآن إلى المسيح . أي معنى يجب أن نعطي لهذه العبارة ؟ هل نعطيها معنى مجازياً أم حرفياً ؟ يقول ميللر باروز : إن في مخطوطات البحر الميت مقطعاً من « سفر التثنية » نقرأ فيه : « حسب عدد أولاد الله » بينما نقرأ في التوراة : « حسب عدد ملائكة الله » (النسخة العربية تقول : حسب عدد بني إسرائيل) . غير أن هناك من يُفسر « أولاد الله » هنا بمعنى الملائكة ، وبالتالي فإن هذا يعني في نظر بعضهم أن المسيح كان رئيس الملائكة . في المقابل نجد أن شارل غينيبير قد جاء بفرضية جديدة تقول أن المسيح قدم نفسه على أساس أنه عبدالله ، وأن كلمة « عبد » بالعبرية تعني « الخادم » كما تعني « الطفل » . وربما كان ذلك وراء إثارة البلبلة حول عبارة « ابن الله » (التي كانت في الأصل تعني « عبدالله ») .

وهنالك التأويلات المجازية كتأويل الأب فيستوجييه الذي يقول إن المتصوفة يستخدمون مثل هذه العبارات أحياناً ، وإن المتصوف قد يصل إلى حال يتعرف فيها على الله كما يتعرف المرء على أبيه . وهو بهذا يعرف نفسه على أساس « ابن الله » . وربما كانت تلك حال المسيح حين يتكلم عن « أبيه » ، وحين يُلقب نفسه بالابن . وأخيراً فإن هناك من يحاول تفسير هذه العبارة تفسيراً نفسياً ويرى أن الناس

حين تفرط في تهليلها للسيد المسيح وتثور حماستها تسقط التمييز بين الآب . . والابن . وهذا التفسير الغريب هو الذي جاء به مجمع نيقية عام ٣٢٥ . وقد جاء في نصوص المجمع : « إن عبارة ابن الله تشير إلى إيمان المسيحيين الأوائل أكثر مما تشير إلى وعي المسيح » .

وسواء قبلنا بهذا التفسير الغريب أم رفضناه فإن عبارة « ابن الله » كانت سبباً في هزيمة الديانة المسيحية بين اليهود الذين اعتبروا هذه العبارة كفراً وتجديفاً ، بينما كانت سبباً في انتشارها بين الوثنيين وعبدة الأصنام الذين كانوا يعايشون هذه الفكرة منذ فترات سحيقة ، وخاصة بين وثنيي البلدان الهيلينية .

لم يكن مستغرباً في بلدان الشرق القديم أن يقوم من يزعم من نفسه « ابن الله » . في مصر القديمة نجد الكثيرين ممن يزعمون أنفسهم أبناء الله ، كأبناء توت وبتاح ورع . ويُقال إن الفاتح الاسكندر الكبير حين دخل معبد سيوه سمع صنم الإلّه آمون يناديه : يا ابني . بل إننا نجد على إحدى حفريات الأسرة الفرعونية التاسعة عشرة في ممفيس وعلى ورق البردي هذه العبارة التي تصف آمون : « هذا الله الذي عمل إلهاً وصار مزدوجاً » ، كما نجد في نصوص الفيلسوف اليوناني هرمس « أن الإنسان حين يتطهر بالتصوف يصبح ابن الله » . أما في فلسطين أيام المسيح فقد كان الواقع متشابكاً معقداً ، وكانت الوثنية منتشرة إلى جانب اليهودية ، ففي رسالة المطران ماروتا إلى مجمع نيقية عن « شمعون الساحر » الذي تقول الأناجيل السرية أنه هو الذي صُلب مكان المسيح يقول ماروتا : « إن هذا الرجل ـ شمعون ـ كان يُلقب نفسه أيضاً بابن الله وأن له قوة الخالق » . وفي نهاية القرن الثاني الميلادي كانت عبارة ابن الله شائعة جداً في فينيقيا وفلسطين .

خلاصة القول أننا لا نستطيع ـ نحن مؤرخي الأديان ـ إلا أن نعترف بالأصل الوثني لعبارة « ابن الله » ، كما لا بد لنا من القول أن هذه العبارة قد كان لها تأثير كبير على استقطاب الكثير من الوثنيين في الديانة المسيحية ، بل دخل بعضهم في الدين الجديد بسببها .

ولنتساءل الآن عن كلمة « المسياء » وأصولها ؟ طبعاً إننا نعثر على كلمة المسياء في العهد القديم ، وخاصة عند الأنبياء . في الإصحاح الحادي عشر لأشعيا والخامس لميخا نجد هذه الكلمة ، غير أن المقصود بها هنا هو « الملك » الذي يحرر شعبه ويعيد إليه السلام والأمل ، وليس المقصود بها كائناً إلّهياً . هكذا نجد مثلاً في « أشعيا الثاني أن اليهود أطلقوا لقب مسياء على كسرى ملك الفرس الذي « حرر » اليهود . ولم يتخذ « المسياء » معنى دينياً خالصاً إلا بعد النفي . كذلك نجد أن « الحاكم العادل » كما يُسمى في « مخطوطات البحر الميت » أطلق عليه أتباعه بعد موته لقب « المسياء » . وكان بعض اليهود يظنون أن يوحنا المعمدان هو المسياء .

وهنا لا بد لنا من أن نعترف بالتأثير الفارسي على اليهود الذين سكنوا في بابل فترة ، قريباً من إيران ، ثم بتأثير الفرس على كل اليهود في الأمبراطورية الفارسية الواسعة . ومعلوم أن فلسطين ظلت خاضعة لفارس فترة من الزمان . وكان العلّامة الفرنسي ارنست رينان يرى أن التأثير الفارسي كبير جداً على المسيحية خاصة في « الثنوية » ، ثنوية النور والظلام ، وأن هنالك تشابهاً كبيراً بين المسياء المسيحي ونظيره الفارسي . وأخيراً لا بد من الإشارة إلى أنه بعد « صلب » المسيح وارتفاعه إلى السماء بدأ الوثنيون في الشرق الأوسط يضفون صفات أدونيس على المسيح . . .

الأصل الوثني
لعقيدة التثليث

من الغـريب أن عقيدة التثليث لا تـذكر في الأنـاجيل الـرسميـة الأربعة إلا قليلاً . وحين تُذكر فإنها تبقى ملتبسة . إننا نقـرأ في آخر إنجيل متى أن المسيح أمر حوارييه أن « يعمّدوا » باسم « الآب والابن والروح القدس » . ثم نجـد في إنجيل يـوحنا كـلاماً للمسيـح حول الـروح القدس الـذي سوف يـرسله الآب . وهذا كـل ما نجـده في الأناجيل . أما أكثر النصوص التي نعثر فيها على عقيـدة التثليث فهي رسائل بولس . هنالك حوالي خمسة إصحاحات تتحدث عن التثليث صراحة ، كما نجد في نهاية رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس . ويجب علينا أن ننتظر القرن الرابع الميلادي ليتم الإعـلان صراحة عن هـذه العقيـدة ، وذلك عـلى لسان القـديس اثناس السكنـدري وفي مجمـع نيقية . لقد تم إعلان ذلك للرد على الموحدين المسيحيين الأريانيين . وكـان إعلان العقيـدة الجـديـدة من قبـل أثنـاس يهـدف إلى إرضـاء المسيحيين الجدد ذوي الأصول الوثنيـة ، فالتثليث عقيـدة قديمـة جداً عند الوثنيين .

كـانت الوثنيـة في بعض البلدان تميل إلى اعتبـار الأقانيم مـظاهر مختلفة للقوة الإلّهية العظيمـة وصفات لهـا . وكان المصريـون قبل أي

شعبٍ آخر معنيين بمسألة الأقانيم ، فنحن نجد للإلّه بتاح مثلاً ثمانية مظاهر شبيهة به أو أقانيم . وكان للإلّه توت سبعة أقانيم برئاسة رع . غير أن جملة هذه الأقانيم كانت ترى من قبل المؤمنين بها مؤلهاً واحداً . ويكتب المؤرخ الفرنسي ج . فانديبه أن كل هذه الأقانيم كانت تُعتبر شخصاً إلهياً واحداً ، غير أن هذا لم يكن يحل دون أن يكون لكل واحد منها حياته المستقلة .

أما في الفكر الإيراني الوثني فإننا نجد « أميشا سبينتا » أو « الصالحين الخالدين » ، أي الكليات الست التي تحيط بأهورا مزدك هي في الواقع أقانيم يعتبرها المصلح الديني زرادشت أقانيم إلّه واحد . أما الغنوصيون وأتباع ماني فقد طوروا هذه النظرية كثيراً في القرون الميلادية الأولى وظنوا أن لله أقانيم تنبعث منه باستمرار .

بعد هذه النظرة العامة على نظرية الأقانيم لا بد لنا من دراسة الأشكال الشبيهة بهذه الأقانيم في الفكر المسيحي . إن مفهوم الإلّه الواحد المؤلف من ثلاثة أشخاص فكرة قديمة جداً . وهنا أيضاً لا بد من الرجوع إلى مصر ، مصر الممتلئة بالأسر الدينية التي كان الشعب يعبدها ، عائلات مؤلفة من أب وأم وابن . ويقول ماسبيرو وهو مؤرخ ديني علامة : « إن أحد الأبوين لم يكن سوى إنعكاس للآخر ، مجرد نسخة عنه ذات جنس آخر » .وهذا ما جعل هذه العائلة الدينية المقدسة مجرد « ثلاثة مظاهر في معبود واحد » . وهذه العبارة نجدها منقوشة على أقدم الآثار المصرية . هكذا نجد الإلّه آمون هو الأب للإلّه خونس . ومنه تنزلت زوجته « موت » في طيبة اقنوما ثانياً . وفي داندره كانت الأم حاثور أم حوروس هي الإلّه ، ومنها يتحدر الأقنوم الثاني أحي زوجها ، ثم ابنها ، أما أشهر أسرة إلهة عُبدت في مصر

فهي أسرة أوزيريس ، إيزيس ، حورس .

وهنـاك ثلاثيـة إلّهية هيـأت الطريق للتثليث المسيحي الـلاحق ، وهي الإلّه الخالق بتـاح ، وكلمته تـوت ، وروحه القـدس حورس ، وهذا التثليث المصري القديم جداً هو الذي عبد الـطريق للهرمسيـة السكندرية المؤلفة من العقل الأكبر أولاً ، ثم الكلمة الخلاقة ثانيـاً ، ثم الروح القدس . وكـان الأفلاطـونيون قـد طوروا هـذه التنظيرات الخاصة بالتثليث . وربما كان هذا ما دفع القديس سيريل المقدسي إلى أن يكتب في القرن الرابع أن الفلاسفة اليونان كانوا يؤمنون بالتثليث المقدس وأنهم كانوا يقولون أن الطبائع الثلاث متحدة بدون واسطة .

وإذا صح أن مصر هي أكثر البلدان خصوبة في الآلهة المؤقنمة فإن للعالم الإيراني الهندي أيضاً نمـاذجه من التثليث . هنـالك مثـلاً الإلّه المثلث « أغني » إلّه النار ثم مثلث الإلّه ميترا الفارسي الذي يتألف من إلّه الشمس المحاط بـ «كوتيس » و« كوتـوباتيس » حـاملي المشـاعل . ونجد التثليث حتى في البلدان التي لم تؤثر على الفكر المسيحي ، كما عند الكلت ، والإيرلنـديين بخـاصة ، حيث هنـاك ألوهـة من ثلاثـة أشقاء ، منهما إثنان ظلان للأكبر منهما . أي أن هناك ثـلاثة أشكـال جسدية لكائنٍ واحد . بل إننا نرى هذا التثليث عند الغال القـدامى الذين كانوا يعبدون ثلاث نساء يؤلهونهن ويجعلونهن متماثلات تمامـاً ، ويدعونهن « ماترس » آلهات الخصب .

ونعثر أحيانـاً على آلهـة ثلاثـة لا توحـدها الأقـانيم على غـرار ما شـاهدنـا سـابقـاً . وهـذا النـوع من التثليث كـان مقـدمـة للتثليث المسيحي ، فقد كانت معظم الشعوب الوثنية لا تميز تمييزاً واضحاً بين الإلّه الواحد المؤقنم بثلاثة أقانيم وبين الآلهة الثلاثة المتقاربة . إننا نعثر

على هذه المجموعات في مختلف البلدان الوثنية القديمة ، ففي الهند : ميترا ، فارونا ، أريامان ، وفي إيران : أهورا مزاده ، أناهيتا ، ميترا . وفي بابل: سين ، شمش ، عشتار ، وفي اليونان : زيوس ، هيرا ، ديونيزوس . وعند الرومان : جوبيتر ، جونون ، مينيرفا . وهي لائحة طويلة جداً من الآلهة المثلثة عند الشعوب الوثنية القديمة . وهذا يعني أن التثليث المسيحي لم يولد من عدم ، وأنه لا بد قد استوحى ما ذكرناه .

ولنحاول الآن أن نبحث في المعنى القديم للمفهوم الثلاثي . لقد كان الرقم ثلاثة رقماً مقدساً . وكان الشاعر يون دوكيوس في زمن بيركليس يقول : « كل ما عليها ثلاثة » . كما كان أفلاطون يقول : حين يشكل عنصران تكويناً جميلاً . . لا بد لهما من ثالث لأنه لا بد من أن يكون بينهما من يقرب بينهما » (طيماوس) . أما فيثاغورس فكان يعطي المثلث أهمية كبيرة ويراه أبسط شكل مضلع مزوي . حتى الفلسفة ما قبل المسيحية كانت تبحث طويلاً في الرقم ثلاثة . هكذا نجد أرسطو في مطلع « السماويات » يكتب قائلاً : إن الفيثاغوريين كانوا يعلنون بأن الكون مؤلف من الرقم ثلاثة حيث أن كل شيء في هذا الكون يُماثل الثلاثة ، فله بداية ووسط ونهاية . بذلك أصبح الرقم ثلاثة مقدساً . وكما يقول أفلاطون الذي كان يستلهم الأورفية أن الله يملك بداية كل شيء ووسطه ونهايته . ويتابع أفلاطون أن الرقم ثلاثة يرمز أيضاً إلى الماضي والحاضر والمستقبل، وبالتالي يرمز إلى الأزل وإلى الله . وليس غريباً إذن أن نقرأ على تمثال إيزيس : أنا الماضي والحاضر والمستقبل . وهذا ما ردده يوحنا وقلده في الرؤيا : « أنا الألف والياء البداية والنهاية يقول الرب الكائن والذي كان والذي

يأتي . . . » . من هنا انبعث التقليد المسيحي الذي يعتبر « العائلة » رقماً مقدساً . ولقد أصرت الكاثوليكية على تقديس ذلك . وفي « شريعة مانو » الهندية : « وحده الكامل ذلك الذي يتكون من زوجته ونفسه وابنه » .

تبنّي الأعياد الوثنيّة

تشعر الشعوب بحاجة ملحة إلى الأعياد واحتفالاتها ، وتحس بجاذبية كبيرة تجاهها لأنها تكسر رتوب الحياة العادية وتريح من قسوة العمل وشظفه . وكانت المسيحية مجلية في هذا الباب فقد لبت حاجات الشعوب وأرضتها تماماً ، بل إنها نافست أكثر الأديان وثنية بكثرة أعيادها وتنوعها وبهرجها .

ودارس تاريخ الأديان الوثنية والمسيحية لا بد أن يلاحظ أن الأعياد المسيحية قد وقتت بذكاء من قبل الكنيسة وصار يحتفل بها في أيام الأعياد الوثنية نفسها . كان آباء الكنيسة يعرفون أن هذه الأعياد الوثنية شعبية جداً ، وأن إقتلاعها قد يضر بالمسيحية . هذا لا يعني بالطبع أن الأعياد المسيحية تتحدر مباشرة من الأعياد الوثنية برغم تشابهها الكبير . أيضاً لا بد من الملاحظة أن الشعوب الوثنية أحبطت جهود الكنيسة لانتزاع الطابع الوثني عن بعض الأديان وجعلت ذلك مستحيلاً مما أدى بالكنيسة نفسها إلى أن تتبنى التقاليد والشعائر الوثنية وتخلع عليها ألقاباً مسيحية . وهنا تزول دهشتنا من أهمية هذه التركة الوثنية حين نُشاهد أعياد الكرنفال الكثيرة هنا وهناك تلك الأعياد التي ورثت أعياد زحل القديمة .

ليس في المسيحية أجمل وأبهى من عيد الميلاد . . . لكننا نندهش حين نعلم أن تاريخ الميلاد ظل ملتبساً لفترة طويلة ، وأنه ليس هناك من مصدر تاريخي موثوق يمكن الاعتماد عليه لتحديد التاريخ الصحيح لميلاد المسيح كما يعترف بذلك أحد كبار أساقفة المسيحية اليوم المونسينيور دوشين في كتابه أصول الشعائر المسيحية (ص ٢٤٧) .

لم يعن مؤرخو المسيحية في البداية بتاريخ ميلاد المسيح قدر عنايتهم بتاريخ « موته » . وكانت احتفالات موته وبعثه أهم الموضوعات المثارة في مطلع تأسيس المسيحية . لم يعلن تاريخ ميلاد المسيح إلا في عام ١٣٠ تقريباً على لسان البابا تيليسفور . وبرغم ذلك فقد تعرض هذا التاريخ إلى تقلبات عديدة إلى أن تم الإتفاق على أن يوم ٦ كانون الثاني / يناير أثبت التواريخ وأقربها إلى الصحة . لكن الكنيسة التي كانت تعرف أن الإحتفال بالعيد الشمسي الكبير في ٢٥ كانون الأول / ديسمبر ، هو ما درج عليه الوثنيون ، فهو تاريخ الانقلاب الشمسي الشتائي في التقويم الروماني القديم ، تقويم جوليان ، والذي يوافق ميلاد الإله الوثني ميترا ، إله الشمس القهار . وقد اضطرت الكنيسة تحت ضغوط قوية وبسبب استمرار الإحتفالات الشعبية الوثنية بميترا أن تختار هذا النهار أيضاً للإحتفال بميلاد المسيح : خاصة وأن العهد الجديد يصف المسيح وصفاً شمسياً ، إذا صح التعبير ، بتأثير المفردات والإصطلاحات الإيرانية والمصرية القديمة . هكذا نقرأ في إنجيل لوقا مثلاً : « بأحشاء رحمة إلهنا التي بها افتقدنا المشرق من العلاء ليضيء على الجالسين » (١ /٧٨ ـ ٧٩) ، كما نقرأ في إنجيل يوحنا : « والنور يضيء في الظلمة » (١ / ٥) . وأخيراً فإن رؤيا يوحنا توضح أن « الخروف » هو سراج القدس السماوية .

في المقابل نجد في عيد الميلاد تقاليد شعبية وتفاصيل غـريبة غـير متـوقعة مـا زالت تحمل أصـولها الـوثنية معهـا بالتـأكيـد . إن أهـالي البروفانس في جنوب فرنسـا يضعون أمـام مهد الـطفل المحتفـل به ، وذلك قبل ثلاثة أسابيع من عيد الميلاد ،صحوناً يملأونها بالقمح (وفي المدن يستخدم العدس) ، ويروى القمح أو العدس بغزارة من أجل أن تظهر أوراقها قبل عيد الميلاد . ولا شك في أننا لا نستطيع أن نفسر هذه الظاهرة تفسيراً مسيحياً ، فهي بقية من بقايا عبادة الإلّه أدونيس إلّه الخصب والزراعة . وما زالت هذه الشعائر تقام بصورة بريئة من غير أن يعرف المحتفلون بها أصولها الوثنية . ولقد كـان عباد أدونيس فعـلاً يزرعـون أمام صنمـه حبوب القمـح ويروونها لتنمـو بسرعـة . وكانت حدائق أدونيس وسيلة سحرية تهـدف إلى تصويـر الإزدهار . ونقل هذا التقليد من أدونيس إلى المسيح هو دليل آخر على التقـارب بين مفهوميهما .

أمـا خطبـة الميلاد التي مـا تزال تقليـداً منتشراً في أنحـاء العـالم المسيحي فهي أيضاً من بقايا الوثنية . إنها بقايا العيد الوثني الذي كان يُحتفل به في ٢٥ كانون الأول / ديسمبر . والمقصود من هذا الاحتفال الذي كان يتم خـلاله إشعـال الحطب هـو مساعـدة الشمس على أن تستعيد نشاطها الناري وتستكمل مسيرتها السماوية .

وما يُسمى بعيد « الغطاس » فإنه أيضاً مزيج من التقاليد الوثنية المسيحية . وكما أشرنا من قبل إلى أن يـوم ٦ كانـون الثاني هـو اليوم الأثبت لميـلاد المسيح ، وقـد احتفظت بـه الكنيسة مـوعـداً لتعميـده وميلاده معاً . واتخذت الكنيسة الكاثوليكية تقليداً بأن تبـارك مجاري المياه في ذلك النهار ، وخاصة الأنهر والمسايل والأغاديـر ، وربما يعـود

ذلــك إلى أن العــمادة كــانت تتم بتغــطيس المـؤمن في النهـر (نهر الأردن) . أما السبب الرئيسي فهو أن الكنيسة أرادت بدون شك أو تمحو من ذاكرة البسطاء ذكرى العيد الوثني للماء الذي كان يُحتفل به في ذلـك اليـوم سـواء عنـد عبادة ديـونيـزوس ، أو عبادة إيــزيس أو أوزوريس ، فخصصت عيد العماد لذلك .

غير أن زيارة ملوك المجوس هي التي صارت تميز عيد الغطاس ، فقد كانت أعياد زحل عند الرومان تتم أيضاً بتاريخ ٦ كانون الثاني / يناير . وفي هذا العيد يتم اختيـار ملك ، وذلك بـالاقتراع عـلى حبة فـول . وظنت الكنيسة أن الاحتفـال بملوك المجوس ستنسي الـوثنيين « ملك الفول » ، لكن هذا لم يحصل ، وما زالت تقاليد هذا العيد تتم باستخدام حبة الفول أو القهوة داخل قطعة الحلوى ، بحيث يتحـول من تظهر في قطعته إلى ملك . . .

وهنالك عيد آخر يُعرف بأحد الشعانين . وقصة هـذا العيد كـما يرويها يوحنا في إنجيله : أن المسيح حين عاد إلى القدس ودخل المدينة المقدسة استقبلته الجماهـير الغفيرة « فـأخذوا سعـوف النخل وخـرجوا للقـائه وكـانوا يصرخـون « أوصنـا » مبـارك الآتي بـاسم الـرب ملك إسرائيل» ، (١٢ /١٢ ـ ١٢) . غير أن إنجيل مرقس وإنجيل متى لا يذكران من هذه الحادثة سوى أن سعوف النخل امتدت على الـطريق التي سلكها المسيح إلى القدس . أما إنجيل لوقا فإنه لا يذكرها أبداً . أما التقاليد المتبعة فقد اعتمدت نص يوحنا . ويذكر أحد آباء الكنيسة لاغرانج أن هناك علاقة بين الأغصان التي تحرق في ذكـرى « موت » المسيح ، والأغصان التي تُرفع احتفالاً بدخول المسيح إلى القدس ، مما يجعلنا نذهب إلى أن هناك تقليداً وثنيـاً وراء ذلك ، وأنـه يهدف إلى

تمجيد النبات وتمجيد الخصوبة . ويذكر لنا بلوتارخ في « حياة ثيزيه » (ص ٢٢) أن الأطفال في أثينا عند الإحتفال بعيد قطف الفواكه كانوا يسيرون في موكب إلى معبد أبوللو . وكان واحد منهم يحمل غصن زيتون ملفوفاً بالصوف ومعلقاً عليه الخبز والتمر وأكواب العسل والزيت والخمر . وكان الأطفال الآخرون يحملون الفواكه والأعشاب والحلوى المستديرة . وما زلنا إلى الآن نجد هذه الاحتفالات الوثنية في المناطق المتوسطية حيث يرفع الأطفال في قداس أحد الشعانين أغصاناً محملة بالفواكه المطبوخة والحلوى المستديرة ليباركهم الرب .

ويروي لنا الكاتب الروماني « أوفيد » أن أهل أثينا كانوا يضعون على واجهة منازلهم أغصان زيتون ، وكانوا يبدلونها في كل ربيع . وما زال هذا المعتقد إلى اليوم سارياً عند الكاثوليك الذين يحتفظون بأغصان البقس التي بوركت أثناء القداس ثم يبدلونها كل عام .

وأحد الشعانين هو مقدمة لاحتفال المسيحيين بـ « موت » المسيح وآلامه . إن عيد الفصح الذي يُحتفل به في ٢٥ مارس / آذار اختير موعده ليتماشى مع يوم الإعتدال الشتائي في تقويم جوليان كما يذكر البحاثة الإنكليزي جيمس فرايزر . وإذن فإن اختيار تاريخ الخامس والعشرين من آذار للاحتفال بعيد الفصح كان في الأصل محاولة للتوفيق بين الشعائر الوثنية وبين الإيمان المسيحي . والكنيسة تحتفل بـ« موت » المسيح وبعثه بطريقة مشابهة جداً لتلك التي كانت الوثنية فيها تحتفل بموت « الإله » أدونيس وبعثه . ويقول الكاتب والعلامة الفرنسي غيميه في كتابه « هوامش على رحلتي إلى اليونان » أنه شاهد في مدينة باتراس اليونانية عام ١٩٠٠ مشهد احتفال بذكرى « دفن المسيح » في جو يذكر بالاحتفالات القديمة لموت أدونيس . عشية

الجمعة الحزينة في الكنائس الكاثوليكية يضعون نعشاً محاطاً بالزهور ، ثم تمر الجماهير المحتشدة لتكريمه بحزن بالغ . ويقول غيميه أن ذلك ذكره بما كان يجري في بيبلوس الفينيقية عندما كانوا يضعون نعشاً منحوتاً من الخشب ومحاطاً بالورد ، عليه صورة أدونيس . وفي هذا النهار الذي يوضع فيه النعش - كما يقول غيميه - يسير الموكب ببطء على طريق الصليب. وعندما تكون هذه المسيرة في الهواء الطلق تتوقف أمام عدد من المحطات التي تتمثل بمجموعة من أصنام المسيح ورسومه . ولا بد هنا من التذكير بأن مصر قد عرفت طقوساً مشابهة . وكان الناس يسيرون في مواكب حاشدة . وكانت الأصنام تخرج من معابدها ويحملها الناس ، ويتوقفون من حين لآخر من أجل تكريمها .

أما عن استعمال البيض ودهنه بمختلف الألوان وتقديمه بمناسبة عيد الفصح فإن هذا الرمز يعود إلى تاريخ وثني قديم ، وهو رمز للحياة المقبلة ووعد . وكان ذلك رمزاً للبعث عند بعض الشعوب المتوسطية بشكلٍ خاص . وإننا لنجد بيضاً من الطين في بعض معابد ما قبل التاريخ . كما نجد بيضاً من حجر في قبور الفراعنة المصريين وقبور الفينقيين واليونان والرومان . . . إلخ . إن وجود البيض في نحوت المقابر الرومانية واليونانية كان يدل على معنى واضح هو الحياة المقبلة .

والاحتفالات المريمية الكثيرة التي تشهد على تأثير سيبيل وإيزيس ليست مفاجأة لأحد إذا عرفنا أهمية هاتين المعبودتين عند المسيحيين وكيف تم تحويلهما إلى مريم . إن الأمبراطور يوليوس قيصر الروماني هو الذي صحح التقويم ، ونقل أعياد أتيس وسيبيل من شهر آذار (مارس) إلى شهر أيار (مايو) . ولقد اختارت الكنيسة الكاثوليكية

شهر أيار (مايو) للإحتفال بأعياد مريم . وحين اختار البابا غريغوري العظيم يوم ١٥ آب للاحتفال بصعود مريم فقد خرج عن المألوف ، لكنه اختار هذا الموعد عن قصد للتذكير بعيد إلهة القمر الوثنية عند اليونان والرومان أرثميس . وقد كان يحتفل بها في هذا التاريخ .

وهنالك عيد آخر تحتفل به الكنيسة الكاثوليكية ، وهو عيد جميع الموتى الذي قرر البابا غريغوري الرابع الإحتفال به لأول مرة في عام ٨٣٥ . ولم يكن اختيار الأول من نوفمبر / تشرين الثاني عبثياً ففي هذا اليوم كانت التقاليد عند شعوب الكلت تحتفل بعيد الموتى . وظل التأثير الوثني طاغياً على الرغم من أن الكنيسة الكاثوليكية حاولت تحويل هذا العيد إلى عيد جميع القديسين فما يزال يسود هذا العيد جو المقابر وزيارتها . وفي القرن الحادي عشر ، بناء على طلب من المطران أوديلون دوكلوني ، حاولت الكنيسة القيام بجهد آخر لتخصيص اليوم التالي (٢ نوفمبر / تشرين الثاني) للاحتفال بعيد القديسين لكن المحاولة فشلت .

إن الكنيسة الكاثوليكية لم تحدد تواريخ أعيادها عشوائياً ، بل عن تفكير ووعي بأحاسيس الناس ولا وعيهم الوثني ، وذلك باعتراف الكاثوليك أنفسهم فقد ألفوا كتاباً بعنوان « كريستوس » أي المسيح ، وأشرف عليه الأب هوبي .

وفي رسالة وجهها البابا غريغوري الكبير حوالي العام ٦٠٠ إلى المبشر ميليتوس الذي كان يبشر بين الإنكليز نلمس كيف كانت الكنيسة تداهن الوثنيين . في هذه الرسالة يتحدث البابا عن الإجراءات التي يجب اتخاذها من أجل اقتلاع الجذور الوثنية ، وينصح

لميليتوس المبشر بعدم اللجوء إلى العنف . فهو مثلاً ينصحه بعدم تدمير المعابد الوثنية ، بل أن يكتفي الرهبان بتطهيرها من أجل عبادة الله الحق . ثم يضيف البابا أن من المستحيل تغيير عقلية هذه الشعوب تماماً . وحين نريد الوصول إلى قمة جبل علينا أن نصعد خطوة خطوة لا أن نقفز . ويتكلم القديس أوغسطين في رسالته التاسعة والعشرين فيقول : إن الكنيسة الكاثوليكية قررت الإحتفال بأعياد الشهداء وتقديم الطعام لهم على طريقة الاحتفالات الوثنية الكبيرة . لكنها تراجعت بعد فترة بضغط من بعض الأتقياء فمنعت تقليد الاحتفالات الوثنية في أعياد الشهداء .

الأصول الوثنيّة للقدّاس

قدمت لنا الاكتشافات الأثرية فهماً عميقاً جداً للعلاقة الوثيقة بين القداس المسيحي وبين الأسرار في الديانات الوثنية القديمة . من بين الآثار المكتشفة في بلاد فارس والموجودة حالياً في متحف اللوفر تمثال لأتباع الإلّه ميترا نراهم فيه يتناولون الخبز والنبيذ . ويصف الكاتب الفرنسي فرانز كومون في مجلة علم الآثار لعام ١٩٤٦ (١٩٣) هذا الأثر قائلاً : نظراً لأن لحم الثور كان صعب المنال أحياناً فقد اضطر أتباع الإلّه ميترا إلى استخدام الخبز والنبيذ مكان اللحم . وكانوا يرمزون بذلك إلى لحم معبودهم ميترا ودمه (تماماً كما يرمز المسيحيون اليوم إلى لحم المسيح ودمه بالخبز والخمر) .

وقد ورد في إنجيل متى على لسان المسيح : « خذوا كلوا . هذا هو جسدي . وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلاً إشربوا منها كلكم لأن هذا هو دمي . . . » (٢٦ /٢٦ ـ ٢٨) . ويُقال إن بعض أتباعه تخلوا عنه عندما قال هذا الكلام ، (كما يُقال في الإنجيل الذي بين أيدينا) وقالوا على ما ورد في إنجيل يوحنا (٦ /٥٣ ـ ٦٦) : « فخاصم اليهود بعضهم بعضاً كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لنأكل . فقال لهم يسوع : الحق الحق أقول لكم إن لم تأكلوا جسد ابن

الإنسـان وتشربوا دمـه فليس لكم حياة فيكم . من يـأكـل جسـدي ويشرب دمي فله حياة أبدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير ، لأن جسدي مأكل حق ودمي مشرب حق . من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيَّ وأنا فيه . كما أرسلني الآب الحي وأنا حي بالآب فمن يأكلني فهو يحيا بي . هذا هو الخبز الذي نزل من السماء . ليس كما أكل آباؤكم المنّ وماتوا . من يأكل هذا الخبز فإنه يحيا إلى الأبد . . . فقال كثيرٌ من تـلاميذه إذ سمعوا : إن هذا الكـلام صعب . من يقدر أن يسمعـه . فعلم يسوع في نفسه أن تـلاميذه يتـذمرون عـلى هذا فقال لهم : أهذا يعثركم ، فإن رأيتم ابن الإنسان صاعداً إلى حيث كان أولاً ، الروح هو الذي يُحيي أما الجسد فلا يفيد شيئاً . الكلام الذي أُكلمكم به هو روح وحياة . ولكن منكم قوم لا يؤمنـون » . وعندمـا قام الإصـلاح البروتستانتي قامت ثورته على رفض هذه العبارة التي تتردد في القداس الكاثوليكي .

وكـان الخلاف يـدور حول الإجـابة عن السؤال التـالي : ما هي طبيعة القربان تماماً ، هل يجب اعتباره ماديـاً أم يجب اعتباره روحيـاً خالصاً ؟

غير أن نصوص الأناجيل الأربعة الرسمية ورسائل القديس بولس تدل على أن هذا الطقس أقيم عـلى أساس حسي مـادي ليتماشى مـع الطقوس الوثنية القديمة . ثم ظهرت النزعة إلى إعطائه بعداً روحياً كما يدل على ذلك إنجيل يوحنا ، وهو أكثر الأناجيل عمقاً وغنوصية . إن إنجيل يوحنا يتجاهـل الكلام المنسـوب إلى المسيح في العشـاء الأخير (حول أكل لحمه وشرب دمه) لكنه في المقابـل تضمن خطابـاً بالـغ الأهمية في اليوم التالي لتوزيعه الخبز الذي تكاثر بين يديه بأعجوبـة .

وكلام المسيح المنسوب إليه في هذا الخطاب يمزج الواقع بالمجاز بأسلوب لبق ، كما يوائم بين القيم المادية والروحية للخبز مما يجعل سامعيه يذهلون . غير أن بعض المقاطع تثير التساؤل حول المعنى الأساسي لخطابه : « الحق الحق أقول لكم من يؤمن بي فله حياة أبدية . أنا هو خبز الحياة . آباؤكم أكلوا المنّ في البرية وماتوا . هذا هو الخبز النازل من السماء لكي يأكل منه الإنسان ولا يموت . أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء . إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد . والخبز الذي أنا أُعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم »(يوحنا ٦ /٤٧ ـ ٥١) . وهنا أيضاً لا بد من التذكير بأن اليهود كانوا يلجأون إلى رموز مماثلة حيث نجد رب البيت يبارك الخبز والنبيذ عند تناول الطعام . وكان الكاهن الآسيني يفعل ذلك . غير أن القداس بجملة تعقيداته الطقسية لا ينتمي إلى اليهودية بل تضرب جذوره في أعماق التاريخ الوثني القديم . لقد كان لكل قبيلة طوطمها الحيواني (معبود حيواني) ، وكانت تعتبره إلهاً . وكان أفراد القبيلة يضحون بهذا الحيوان ويلتهمونه لحماً ودماً ، اعتقاداً منهم بأن ذلك سيكسبهم فضائل سماوية (كما تعتقد المسيحية الحالية أن التهام لحم المسيح ودمه سيكسب المؤمنين فضائل غير بشرية خالدة) .

وبعض المسيحيين يذهلون ويرفضون مثل هذه المقارنات رفضاً قاطعاً . لكن علينا هنا أن نذكر فقرة واضحة جداً من رسالة القديس بولس الأولى إلى أهل كورنثوس يتحدث فيها عن أكل اللحوم المذبوحة للآلهة عند الوثنيين ، وفي هذا المقطع يحذر بولس قائلاً : « إن ما يذبحه الأمم إنما يذبحونه للشياطين لا لله . فلست أُريد ن تكونوا أنتم شركاء الشياطين . لا تقدرون أن تشربوا كأس الرب وكأس شياطين .

لا تقدرون أن تشتركوا في مائدة الرب وفي مائدة الشياطين . أم نغير الرب . ألعلنا أقوى منه » . وقد غضب القديس جوستين من هذه المقارنة وقال : « إن المقارنة بين القداس المسيحي والذبائح الوثنية أصلاً هي مقارنة شيطانية » .

لكن علماء التاريخ والأديان الذين يرفضون المقارنة بين الوثنية والمسيحية هم قلة بين العلماء . ومعظمهم يرى أن أكل اللحم النيىء وشرب الخمر في أسرار ديونيزوس مثلاً لم يكن رمزاً بل كان مناولة حقيقية . ويقول الكاتب الوثني أرنوب في كتابه (ضد الوثنيين) إن هؤلاء حين كانوا يتناولون اللحم النيىء إنما يعتقدون أنهم يمتلئون بالفضيلة الإلّهية . وفي هذا الصدد يقول الأب لاغرانج في كتابه عن أورفيوس : « إن أكل اللحم النيىء كان يهدف إلى التوغل في الحياة الإلّهية وذلك بالتهام الحيوان الإلّهي لحماً ودماً». أما فرانز كومون فيذهب إلى أبعد من ذلك عندما يقول إن نبيذ القربان المسيحي هو بديل للنبيذ الذي كان يقدم في أعياد باخوس وإنه شراب يضمن الخلود في العالم الآخر (من بحث حول رموز الدفن عند الرومان) .

ويقول العالم الفرنسي شارل غينيبير في كتابه عن المسيح (ص ٣٧٣) أن علماء الآثار وجدوا نصوصاً على ورق البردى من مصر القديمة تدل على أن دم الإلّه أوزيريس كان يتحول إلى خمر . وكذلك يقول فرانز كومون في كتابه عن الأديان الشرقية القديمة « أن أتباع أتارغاتيس (المعبودة السورية القديمة) كانوا يلتهمون السمك الذي يقدمونه لها ثم ينشدون أنهم بذلك يتناولون لحم معبودتهم . (وهذا ما يفعله المسيحيون في القداس أيضاً) .

التثليثُ وَجذورهُ الوثنِيَّة

بقلم: إدغار ويُند

تنتمي عقيدة التثليث إلى الأسرار التأويلية الخفية ، وهي الأسرار التي يتشاطرها المسيحيون وعبدة الأصنام . وكان القديس أوغسطين قد عبر عن ذلك بوضوح تام خاصة في كتابيه التاسع والخامس عشر . ووجد المفكر الإيطالي النهضوي فيشينو أن أفكار أوغسطين مستمدة من أفكار الفيثاغوريين والأفلاطونيين . وكتب فيشينو في كتابه عن « الحب » ، وهو كتاب يعلق فيه على فكر أفلاطون ، فقال : إن الفلاسفة الفيثاغوريين كانوا يعتبرون أن التثليث معيار لكل الأشياء ، ولهذا فإنني أعتقد أن الله يدير الأشياء ثلاثة بثلاثة ، وأن الأشياء نفسها تُقاس ثلاثة بثلاثة . بل ان أرسطو نفسه نقل عن الفيثاغوريين قولهم : « إن العالم بما فيه محكوم بالعدد ثلاثة . وهكذا فإننا نستخدم هذا الرقم في عبادة الآلهة .

أما لماذا الرقم ثلاثة فلأن الله خلق الأشياء أولاً ، وأمسك بها ثانياً ، ثم جعلها كاملة ثالثاً . في البداية تدفقت الأشياء من النبع الأزلي في لحظة ولادتها ، ثم عادت من جديد إلى هذا النبع عندما رجعت إلى أصولها ، وبعدها عادت إلى بداياتها عندما أصبحت كاملة . هكذا كان أورفيوس يطلق على الإله جوبيتر اسم البداية

والوسط ونهاية الكون . فهو البداية لأنه يخلق ، وهو الوسط لأنه يعيد هذه المخلوقات إليه ، وهو النهاية لأنه يجعلها كاملة لدى عودتها إليه .

ويعتقد أوغسطين أن التثليث قد ترك آثاره على كل ما في هذا الكون ، وأن التثليث الذي يُعتبر جزءاً من الألوهة يتغير عندما يصير في المخلوقات . وكان أهم مفكري التثليث في عصر النهضة الغربي مثل فيشينو وبيكو ديلا مراندولا يبحثون عن الجذور البدائية للتثليث بين الوثنيين . وقد لاقت أعمالهم شهرة كبيرة في عصر النهضة . وكان بعضهم يرى أن أورفيوس وأفلاطون وزرادشت وهرمس من دعاة التثليث المسيحي بل انهم تنبأوا به قبل أوانه . وكان هنالك دعاة للتثليث المسيحي قبل المسيحية مثل أتباع فيثاغورس والفيلسوف اليوناني أفلوطين .

أما أتباع أفلوطين في عصر النهضة فكانوا متأثرين كثيراً بالأقانيم الثلاثة الواردة في فلسفة أفلوطين ، وكانوا يعتبرونها أثراً من آثار التثليث . أما فيشينو وبيكو وأتباعهما فقالوا بأنه يجب التفريق بين الأقنوم الثاني وبين المسيح لكن لا بأس من وصفه بابن الله أو اللوغوس . وكان بعض مفكري عصر النهضة مثل غيميستوس ليثو في كتابه « في موكب الروح القدس » يفصل بين رأي الكنيسة في التثليث وبين اللاهوت الهيليني . وقد سار على خطاه الكاتب والأب الدومينيكي أنطونيوس فلم يكتفِ بقبول عقيدة التثليث مع كل ما يترتب عليها ، لكنه استشهد بالمؤلفين الوثنيين على اعتبار أنهم دعائم التثليث المسيحي الذي جاء لاحقاً ، ومن هؤلاء الذين استشهد بهم هرمس وأفلاطون ـ وحتى العرافات السيبيليات .

. . . كان المفكران بيكو وفيشينو متأثرين إلى أبعد حد بأعمال مفكر آخر سبق أن كتب عن التثليث الوثني عند زرادشت وغيره ، لكن أعمال هذا المفكر بليثو أبيدت نهائياً . كان لبليثو هذا مدرسة في ميسترا الإيطالية يشرف عليها ويبشر فيها بأن لاهوت زرادشت وأفلاطون يقوم على أساس التثليث . وكان لمدرسته دوي كبير في الأوساط المسيحية ، فكان لها من يدعمها ومن يرفضها . على أنه حصل في عصر النهضة ما هو أكثر تطرفاً من ذلك في مجال التقارب الوثني المسيحي ، فكانت هناك مدرسة أخرى في روما في عصر البابا بولس الثاني ، وكانت مدرسة مثيرة للجدل يشرف عليها الكاردينال بيساريون وتقيم شعائر وتراتيل غريبة ، ولها تقويم مستقل ولاهوت وسلسلة متدرجة من الاحتفالات وذلك للحوار الروحي مع الوثنيين كما يزعمون . ووفقاً لإيمانهم فقد كانوا يقولون ان حقائق المسيحية الأساسية لا يمكن أن تكون قد غابت عن حكماء العهود القديمة . بذلك كان بعث الحضارة الوثنية الغربية مرتبطاً في ذهن هؤلاء المفكرين برغبة شاملة في تجاوز الخلافات الهامشية . وفعلاً فقد كتب نص « نحو دين شامل » (وثني مسيحي) عنوانه « التحالف الكاثوليكي » ، وذلك في مجمع بازل .

وكان بليثو هذا يبني أحلامه وآماله في « دين واحد شامل » على العقائد المشتركة بين الطرفين المسيحي والوثني ، وهي عقائد قديمة جداً في نظره . أكثر من ذلك فقد كان بليثو يؤمن بنظام بدائي محكم للكون ولا يؤمن بالجدلية . وقد وقف في مجمع فلورنسه إلى جانب مرقس الأفسوسي وتعصب له . وكان الأفسوسي يقول : « لا تحرقوا ما بناه أجدادكم » مشيراً إلى عقائد الوثنيين ، بل كان يقول أكثر من ذلك :

إذا كانت الحقيقة قد وجدت في البداية ثم شوهت على يد مجددين حمقى مغامرين فإن ما بيننا وبين الأقدمين من اتفاق ولقاء يسمح لنا ببعث العقائد القديمة » . وهنالك بالطبع فرق بين الحكماء وبين السفسطائيين فالحكماء لا يرفضون الحقائق القديمة بل يعتصمون بحبلها لأنها قديمة ومتفوقة على العقائد الباطلة التي ينشئها السفسطائيون » (من بليثو : « الشرائع ») .

ويشير المؤرخون إلى أن تلك الفترة شهدت ثورة صامتة إجتاحت فلورنسه وتبنت مؤلفات الراهب كوزانوس الذي كان يدعو إلى « دين واحد وشعائر مختلفة » ، فإذا قبل البابوات بالتقليد اللاتيني المرادف لمعنى الاتحاد فقد تميزت فلورنسه بالقول : إن هنالك تطابقاً في الإيمان واختلافاً في التقاليد والشعائر مهما كانت هذه التقاليد والشعائر . وكان كوزانوس يقول عن نفسه أنه ليس مسيحياً فقط بل إنه مسيحي أفلوطيني أيضاً . ولم يكن يتورع عن أن يعلن في فلورنسه بأنه يؤمن بتعدد أشكال الألوهة ، وأن هذا التعدد (الذي قالت به الوثنية من قبل) كان تمهيداً للمسيحية . وكانت هذه النظرة التلفيقية تستمد جذورها من كتب القديس أوغسطين .

أقر المسيحيون في عصر النهضة ما جاء في كتب القديس أوغسطين وبروكلوس من أن « التثليث المقدس » كان معروفاً لدى الوثنيين لكنه كان مجرد ظل باهت للتثليث المسيحي . وانطلاقاً من هذه القناعة تم الكشف عن عددٍ هائل من الآلهة المثلثة (بالمئات) في الكتب الوثنية القديمة . وكان الباحث الألماني المعاصر « هـ . أوزينير » قد جرد أكثر من ١٢٠ إلهاً مثلثاً في الأديان اليونانية القديمة . وكان هدف دراسته مختلفاً عن دراسات عضر النهضة . فهو يعتقد أن الرقم ثلاثة لا يعني

شيئاً سوى أن أتباع هذه الديانات في الأزمنة الغابرة لم يكونوا يعرفون من الأعداد سوى الواحد والاثنين والثلاثة . وكان الرقم ثلاثة هذا دليلاً على صيغة الجمع (وعلى أنه أكثر الكثير) ولا يمكن تحميله معنى آخر . أما مفكرو عصر النهضة فكانوا يقولون شيئاً آخر ، فهم يعتقدون أن كثرة الآلهة المثلثة في الديانات الوثنية القديمة وانتشارها كان دليلاً أن هنالك لاهوتاً تثليثياً بين الوثنيين . وقد جرت محاولات كثيرة في عصر النهضة لجعل كل هذه الآلهة الثلاثية تتناغم مع بعضها . هكذا وجدوا مثلاً أن فينوس تتوحد في ثلاث آلهات يعرفن باسم آلهات الحسن ، كما قالوا أن الإله ساتورن يتوحد في جوبيتير وبلوتو . وفي غمرة حماستهم لتثليث الآلهة راح المفكرون الأفلاطونيون الحديثون في عصر النهضة يتطرفون فيما ذهبوا إليه فقالوا مثلاً أن « المنصَب » الثلاثي الأرجل الذي يقف عليه الإله اليوناني أبوللو يدل على التثليث ، وأن الالهة ديانا هي آلهة التثليث لأن أسمها الثاني Trivio يعني التثليث باللاتينية ، وأن لها ثلاثة وجوه كما ورد في الألياذة . وقد لقبها أوفيد الكاتب اللاتيني الكبير بالآلهة التثليثية . وأغرب ما في ذلك أننا نجدها مرسومة على قبر البابا سيستوس الرابع حيث تطل ثلاث رؤوس من خلل أشعة الشمس كأنها ظل لأنوار التثليث المسيحي . وجمع كاتب عصر النهضة الإيطالي جيرالدوس كمية هائلة من الوثائق حول هرمس ذي الرؤوس الثلاث ، وكانت رسومه تكثر وتتزايد في عصر النهضة .

ولم يكتفِ مفكرو عصر النهضة باستلهام الآلهة الرومان واليونان القدامى في محاولاتهم للتقريب والتأليف بين المسيحية والوثنية بل راحوا ينقبون في التراث المصري القديم عن الآلهة المثلثة فوجدوا لأوزوريس

المصري مثل ساتورن اليوناني ثلاثة أبناء هم أنوبيس وماسيدون وهرقل المصري . كما استلهم كتّاب عصر النهضة ، وأوفيد خاصة هذه الآلهة المثلثة ووصفها مطولاً ، بل أنه ضم العرافات والكاهنات إلى صفوف الآلهة البدائية المثلثة . إننا نجد على كثيرٍ من الحفريات الإيطالية في عصر النهضة صوراً تثليثية للعرافات يعلّق عليها أحد كبار المؤرخين الفرنسيين كلود ميغنو : إنني أفهم من ذلك أن العرافات التثليثيات كن يتنبأن بالتثليث المقدس . إنهن ثلاثة وجوه يحملن الإسم الثلاثي : المقدس ـ المخلص ـ شبه الأب . وهذا بلا شك استشراف لسر التثليث في الديانة المسيحية .

وتطرف مفكرو عصر النهضة بعيداً حين عبر بعضهم عن التثليث بالمعاني الوثنية وقالوا : إن بعض أقانيم « معبودهم » قد تكون ظلامية ، وذلك في محاولة لاستيعاب التثليث الكلداني القديم : أهرامازاد ، ميترا ، أهريمان حيث يمثل أهريمان الشيطان إلّه الظلمات ، كما يمثله أمنيبوس في التثليث المصري .

ونجد في فترة متأخرة نسبياً ، أي في عام ١٦٥٥ قصيدة مهداة إلى البابا ألكسندر السابع مقطعاً يقول : « إن الوجوه الثلاثة تعني القوى الإلّهية الثلاث : السماء والأرض وجهنم » .

وكان العلّامة الألماني كونراد سيلتس حين علم بقصة التثليث عند الوثنيين قد قام بحفريات على الخشب (عام ١٥٠٧) هدفها التقريب الفعلي بين التثليث المسيحي والتثليث الوثني ، فوضع بدلاً من الآب وهو يبارك المسيح الابن صورة جوبيتير وهو يحوم فوق ابنه أبوللو بينما تحول الروح القدس إلى المجنح بيغاسوس . أما مريم العذراء الواقفة

إلى جانب المسيح فوضع مكانها العذراء مينيرفا ، ووضع مكان يوحنا المعمدان الذي بشر بمجيىء المسيح صورة هرمس . . . .

في أواخر القرن السادس عشر ، وبتأثير البروتستانتية عـبر بعض المفكـرين عن مخاوفهم من أن يختفي التثليث المسيحي التقليـدي بين هذه الكثرة الكاثرة من التثليث الوثني ـ المسيحي الملفق . . .

مقدّمة

بقلم : كارلُ غوسْتافُ يونُغ

إنطلقت هذه الدراسة من محاضرة لي في اجتماع هيئة « ايرانوس » عام ١٩٤٠. وكان عنوان المحاضرة: « عن فكرة التثليث على ضوء علم النفس » . وعلى الرغم من أن هذه المحاضرة نشرت لاحقاً في زيوريخ بسويسرا عام ١٩٤٢ وأنها كانت شبه مسودة ، فإنني كنت على قناعة بأنها تحتاج إلى تطوير وتعميق . وأحسست تجاه نفسي بأنني أمام واجب أخلاقي ، وأنه ينبغي عليَّ أن أرجع إلى هذا الموضوع لأعالجه بطريقة تليق بأهميته وتفيه حقه . وكانت محاضرتي قد أثارت عدداً من ردات الفعل ، وتأكد لي أن عدداً من قرائي يعترضون على ما جاء فيها برغم حرصي على تفادي كل ما يؤذي مشاعرهم الدينية وقيمهم . لكن يبدو أن المعترضين على محاضرتي لا يمانعون لو كانت البوذية موضوعاً للتحليل النفسي بدلاً من المسيحية على الرغم من أن للبوذية أيضاً قداستها وحرمتها . . .

وكان لزاماً عليَّ أن أُسائل نفسي مساءلة جادة عما إذا لم يكن أضر وأخطر أن نقصي الرموز المسيحية عن حيز التفكير الجاد ، وأن نكتفي بنبذها إلى حيز الألغاز المقدسة المحرمة . إن هذه الرموز المسيحية قد تشتط في شطحاتها مما يحيل لاعقلانيتها إلى هراء وتخريف . إن الإيمان

(المسيحي) ليس مشاعاً لكل الناس ، غير أن كل الناس يملكون موهبة التفكير التي تجهد للوصول إلى أعمق الأمور . . . إن الذين يؤمنون ولا يفكرون إنما يتناسون أنهم يعرضون أنفسهم لأخطر أعدائهم وأعني الشك . أما الذين يفكرون فيرحبون بالشك لأنه أداتهم إلى معرفة أفضل . وعلى المؤمنين المسيحيين أن يكونوا أكثر تسامحاً مما هم عليه تجاه التفكير .

وإنني لأزعم هنا أنه لولا أن القدماء فكروا لما وضعوا لنا عقيدة التثليث .

مقارنات

بين المسيحيّة والأديان الوثنيّة الاخرى

أ ـ بابل

حين فكرت بدراسة هذا الرمز المحوري للديانة المسيحية ، وأعني التثليث ، من وجهة نظر نفسانية فإنني كنت أعلم يقيناً بأنني أتجاوز حدود مملكتي وألِج تخوماً بعيدة نائية عن علم النفس ، فكل مسألة دينية إنما تلامس شغاف الروح الإنسانية مما يجعل علم النفس خائباً حسيراً ، بل آخر من يستطيع أن يدلي بدلوه فيها . والمسألة الدينية ـ كمسألة التثليث ـ شديدة الالتحام بمملكة اللاهوت ، مما يجعل التاريخ هو العلم الأوحد القادر على الاقتراب منها . ولكن لا بد من القول بأن معظم الناس قد أقلعوا اليوم عن التساؤل عن المعتقدات الدينية ، وخاصة عن عقيدة التثليث . إن قلة قليلة من الذين يعلنون إيمانهم بالمسيحية ويعتقدون بالتثليث يعتبرونه موضوعاً قابلاً للتفكير والبحث .

إن عقيدة التثليث أو الآلهة المثلثة ظهرت مبكراً جداً وعلى مستوى بدائي . إن التثليث في الأديان القديمة ، وفي الشرق بشكلٍ خاص ، مسألة منتشرة شائعة إلى الحدود التي لا نستطيع أن نحصيها أو نذكرها جميعاً ، ولعل تنظيم الآلهة المثلثة من أبرز الظواهر في تاريخ الأديان . ولا شك في أن هذا النموذج الديني القديم قد كان وراء عقيدة التثليث

في الديانة المسيحية . وغالباً ما كنا نجد أن هذه الآلهة المثلثة ليست آلهة ثلاثة مختلفة أو مستقلة عن بعضها ، بل كانت هناك علاقة وثيقة بينها . وأذكر أنا مثلاً الآلهة البابلية المثلثة : أنو ، بل ، أيا ، كان « أيا » رمزاً للمعرفة وكان والد بل (الآب) الذي كان يمثل النشاط العملي . وهناك ثلاثة آلهة بابلية أخرى هي سن (القمر) ، وأداد (العاصفة) ، وهنا نجد أن « أداد » هو ابن الآب « أنو » . وفي حكم نبوخذ نصر صار « أداد » رب السماء والأرض ، ثم اتضحت العلاقة بين الآب والابن في أيام حمورابي حيث نجد « مردوك بن أيا » يأخذ القوة من الإله « بل » ويبعده إلى الظل . وكان « أيا » والداً عامراً بالمحبة لابنه الذي يعطيه قوته وحقوقه . أما مردوك فهو أصلاً إله الشمس وكانت له مرتبة « الآب » بينما كان « أيا » وسيطاً بين الآب وبين البشر . وقد قال « أيا » أن كل ما يعرفه هو يعرفه ابنه أيضاً . ثم يبرز مردوك في صراعه مع « تيامات » إلهاً مخلّصاً ، فهو الرب الذي يحب إيقاظ الموتى ، والمخلص الحقيقي للبشرية . وكانت هذه الأفكار عن المخلص قد انتشرت في أرجاء البلاد البابلية كلها وما تزال منتشرة إلى الآن عند ورثة هذه الديانات . كذلك فإن هنالك آلهة بابلية مثلثة مثل : سن (القمر) وشمش (الشمس) ثم عشتار التي تحتل مكان الإله أداد .

ولقد ثبت أن الآلهة المثلثة كانت عقيدة لاهوتية أكثر مما كانت قوة حية . والواقع أن التثليث أقدم المعتقدات الدينية الوثنية وأعرقها . . .

ب ـ مصر

والأفكـار التي كانت بـدائية في الـدين البابـلي تطورت كثيـراً في الديانة المصرية القديمة . وهنـا أريد أن أركـز تركيـزاً خاصـاً على أن اللاهوت المصري القديم كان يصر على الوحدة الجوهرية التي كان فيها الفرعون المصري يجمع بين الأب والإبن في الألوهة البـابلية . وكـان العالم الألماني جاكوبسون قد أشار إلى ذلك في دراسة مهمة ، وذلك في كتابه « دراسة العقائد الدينية عند ملوك مصر » ، وقـال ان الشخص الثـالث بـين الآب والإبن المجتمعـين في شخص الملك هـو « كــع ـ موتف » ، وهذه عبارة تعني « ثور امه » . و« كع » هي القوة الخلاقة ، وبواسطتها يتحد الآب بالإبن على شكل وحدة مؤلفـة من الله والملك كع لا على شكل تثليث . هنا نستطيع الحديث ، كما يقول جاكوبسون عن وحدة مثلثة يكون فيها الآب هو الله ، والملك هو الإبن ، وكع هو حلقة الوصل بينهما . وفي نهاية كتابه يعقد جاكوبسون مقارنة بين هذه الفكـرة المصرية وبـين العقيدة المسيحيـة ، ثم يستشهد بكـاتب آخـر يدعى بارت وكان قد درس التثليث المسيحي . ويقول جاكوبسون : « إن الروح القدس عند المسيحيين يوازي « كع » عند المصريين ، وبه يتحد الآب بالإبن . إن الـولادة الإلهية للفـرعون تتم عـبر « كع » ، وذلـك من خلال أم بشريـة للملك . غير أن هـذه الأم ، كـما عنـد المسيحيـين تبقى خـارج إطـار التثليث . هكـذا نجـد عنـد الأقبــاط المصريين في فجر المسيحية هذا التأثر فقد نقلوا الأفكار المصرية القديمة حـول « كع » وألبسـوها لـروح القدس . وفي بعض الكتب القبـطية القديمة ككتـاب « Pistis Sofia » الذي اكتشف في نجـع حمادي

عام ١٩٤٥ ، والذي يعود للقرن الثالث الميلادي ان الأقباط كانوا يسمون الروح القدس بـ« كع » كما كانوا يجعلونه أحياناً شبيهاً بالمسيح . وفي النصوص المصرية القديمة وصف لولادة الابن الإلهي يجعلونه أحياناً في حورس الإله وكيف يقول الآب عن الإبن : لسوف يُمارس ملكاً مباركاً في هذه الأرض لأني وضعت روحي فيه . ويقول للإبن : « إنك ابن جسدي الذي أنجبت » . وهنا لا بد من أن نقارن هذا مع ما ورد في رسالة بولس إلى العبرانيين (١/٥) : « أنت إبني أنا اليوم ولدتك » . وإذا كانت الشمس التي يرثها ابن حورس عن أبيه تبرز فيه من جديد ويقول : « إن عينيه هما الشمس والقمر وهما عينا حورس » فإننا نقرأ في ملاخي (٤/٢) : « ولكم أيها المتقون اسمي تشرق شمس البر والشقاء في أجنحتها » . ومن لا يفكر هنا بأجنحة قرص الشمس عند قدامى المصريين . لقد انتقلت هذه الأفكار إلى التوفيقية الهيلينية ثم انتقلت بعد ذلك إلى المسيحية عبر فيلون السكندري وبلوتارخ . لهذا لا بد من القول أنه لا صحة لما يقول اللاهوتيون المسيحيون المعاصرون حين يزعمون أن مصر القديمة لم يكن لها أثر على قيام الأفكار والعقائد المسيحية . وإنني لأرى الأمر على نقيض ما يقولونه فمن المستحيل أن تكون الأفكار البابلية هي الأفكار الوحيدة التي دخلت فلسطين ، سيما وأن هذه الدولة (فلسطين) خضعت للسيادة المصرية فترة طويلة ، وكانت لها علاقة وثيقة مع جارتها القوية (مصر) ، وخاصة عندما كان هناك جالية يهودية في الإسكندرية قبل ولادة المسيح ببضعة قرون . إنني لا أفهم كيف أن البروتستانت اللاهوتيين يعملون المستحيل لإقناعنا بأن الأفكار المسيحية (الحالية) هبطت من السماء ولم تتأثر بشيء قبلها » .

ج - اليونان

وحين ندرس المصادر التي بحثت في التثليث قبل المسيحية لا نستطيع إلا أن نستعرض آراء الفلاسفة اليونان استعراضاً سريعاً . وإننا لنعلم سلفاً أن التفكير اليوناني الخاص بالتثليث موجود حتى في انجيل يوحنا المعروف بنزعته الغنوصية . أما لاحقاً في زمن آباء الكنيسة اليونان فإن هذه الروح الفلسفية اليونانية راحت توسع المضمون الأصيل للوحي وتشرحه انطلاقاً من أفكارها ومبادئها . وكان فيثاغورس ومدرسته قد أثرا تأثيراً كبيراً على صياغة الفكر اليوناني التثليثي . وبما أن جزءاً من مبدأ التثليث يقوم على رمزية الأعداد فإن من اللازم علينا أن نفحص النظام الفيثاغوري للأعداد ، وأن نرى ما يتضمنه هذا النظام وما يقوله عن الأعداد الثلاثة الرئيسية التي تعنينا هنا . يقول الكاتب الألماني زيللر في كتابه « تاريخ الفلسفة اليونانية » : « الواحد هو الأول الذي تصدر عنه كل الأعداد ، وبالتالي فإنه تتحد فيه الخصائص المتناقضة للأعداد المزدوجة والمفردة . والعدد اثنان هو أول عدد مزدوج . أما الثلاثة فإنه أول عدد مفرد كامل لأنه أول عدد يتضمن بداية ووسطاً ونهاية » (ص ٤٢٩ ، المجلد الأول) . ولقد أثرت آراء الفلاسفة الفيثاغوريين بأفلاطون تأثيراً كبيراً ، كما نرى ذلك في طيماوس . وبما أن هذا التأثير قد أوغل بعيداً في ترك بصماته على التصورات الفلسفية اللاحقة فإنه لا بد لنا من أن ندرس تصورات الأعداد لدى اليونان دراسة نفسية أعمق .

إن للعدد واحد اعتباراً خاصاً . وهذا ما نلحظه في الفلسفة الطبيعية للقرون الوسطى . ووفقاً لهذه الفلسفة فإن الواحد ليس عدداً

على الإطلاق . إن العدد الأول هو الاثنان ، ففيه حصل الافتراق والضرب ، ثم إنه وحده جعل مسألة العدّ ممكنة . ومع ظهور العدد اثنين يظهر الآخر إلى جانب الواحد . وهذا حدث مثير بحيث أن كثيراً من اللغات تستخدم كلمتي « الآخر » و« الثاني » بمعنى . ثم إن فكرة اليسار واليمين مرتبطة أيضاً بالعدد « اثنين » ، وكذلك الأمر بالنسبة للحسن والقبيح ، والصالح والطالح . وقد يكون لـ «الآخر» معنى « مشؤوم ، أو أن المرء يشعر بأنه معاد ، أو غير أليف . وهنالك سيميائي من القرون الوسطى كتب يقول إنطلاقاً من تلك النظرة : لهذا السبب لم يشأ الله أن يُمدح في اليوم الثاني للخلق لأنه في ذلك النهار (الإثنين ، نهار القمر) خلق الشيطان . إن العدد اثنين يتضمن معنى الواحد المختلف (أي العدد الثاني : اثنين) ويتميز عن العدد الواحد اللاعددي . وبتعبيرٍ آخر فإنه حالما يظهر العدد فإن ثمة وحدة تصدر عن الوحدة الأصيلة ، وهي أصلاً الوحدة التي انشطرت إلى إثنين وتحولت إلى عدد . إن « الواحد » والآخر يشكلان تضاداً ، أما الواحد والاثنين فمجرد أعداد لا تتميز إلا بقيمتها الرياضية . غير أن الواحد يحاول أن يتمسك بوجوده الواحد بينما يناضل الآخر لأن يكون وجوداً مضاداً للواحد . والواحد يعمل على عدم إخراج الآخر لأنه إذا فعل ذلك فإنه يفقد ميزته بينما نرى الآخر يدفع بنفسه بعيداً عن الواحد في محاولة من أجل أن يظهر في الوجود . وهنا يتأزم التضاد بين الواحد والآخر ، غير أن كل تأزم بين التناقضات تتأوج في حل يخرج منه الثالث . وفي الثالث ينحل التناقض ، وتعود الوحدة المفقودة .

والوحدة ، أي الواحد المطلق ، لا يمكن عدّها ، فهي لا تعرّف ولا تعرف . وهي لا تعرف إلا حين تبرز كوحدة Unit أي كالعدد

واحد ، وذلك لأن الآخر المطلوب من أجل فعل المعرفة هذا ناقص في شرط الواحد . والعدد ثلاثة هو كشف الواحد لوضع يمكن أن يعرف فيه . وبذلك تصبح الوحدة قابلة للمعرفة . والثلاثة أيضاً تظهر أيضاً مرادفاً ملائماً لعملية التطور في الزمن ، وبالتالي فإنها تشكل ما يعين على الكشف الذاتي للألوهة باعتبارها الواحد المطلق الذي تم الكشف عنه عبر الثلاثة . وعلاقة الثلاثة بالواحد يمكن التعبير عنها من خلال مثلث متساوي الأضلاع ، أي عبر تطابق الثلاثة .

هذه الفكرة الذهنية للمثلث المتساوي الأضلاع ليست إلا نموذجاً تخيلياً للفكرة المنطقية حول التثليث .

وبالإضافة إلى التأويل الفيثاغوري للأعداد فإن علينا أن نبحث في الفلسفة اليونانية عن مصدر أكثر مباشرة لعقيدة التثليث المسيحية ، وأقصد كتاب « طيماوس » لأفلاطون . ولأستشهد الآن بالحجة التقليدية من المقطعين ٣١ ب و٣٢ أ :

« وإذن فحين ابتدأ الله بصياغة جسد الكون راح يصنعه من النار والتراب . وبما أنه لا يمكن الجمع بين شيئين جمعاً سليماً بدون الإستعانة بثالث يربط بينهما ويشدهما إلى بعضهما . وأن أفضل هذه الروابط هي تلك التي تتحد مع العنصرين اللذين تجمع بينهما وتجعل من الثلاثة واحداً بكل معنى الكلمة . إن هذا الرابط ينتمي إلى طبيعة البعد الهندسي الذي يمكن أن يصنع هذا الكمال . . .

« ولهذه الحجة أفكار ذات عواقب نفسية بعيدة المدى ، فإذا كان مضادان بسيطان مثل النار والتراب مرتبطين برابط ، وإذا كان هذا الرابط هندسياً ، فإن رابطاً واحداً يستطيع أن يربط بين الأشكال

المسطحة فقط ، بينما نحتاج إلى رابطين للربط بين جسمين صلبين . وإذا افترضنا أن جسد الكون مساحة مسطحة لا عمق لها فإن رابطاً واحداً يكفي ، لكن للعالم في الواقع شكلاً صلباً ، والأجسام الصلبة بحاجة إلى رابطين .

« ومن هنا فإن الرابط ذا البعدين ليس بحقيقة فيزيائية لأنه مسطح لا امتداد له في البعد الثالث (العمق) وهو تفكير مجرد ، وإذا أراد أن يكون حقيقة فيزيائية فإن المطلوب ثلاثة أبعاد ورابطان .

« لكل هذا وضع الله الماء والهواء بين النار والتراب ، وجعلهما متناسقين قدر الإمكان بحيث يمكن أن تكون النار للهواء كما يكون الهواء للماء ، ويكون الهواء للماء كما الهواء للتراب . بذلك أحكم الله خلق هذا العالم المرئي المحسوس ، وانطلاقاً من هذه الأسباب وهذه المركبات الأربعة (عددياً) خلق العالم بأحجامٍ متناسبة . وانطلاقاً من هذه الأحجام صار العالم مفهوماً ، وصار متحداً مع نفسه ، كما صار من المستحيل تفكيكه من قبل أية قوة أخرى إلاه » (انتهى كلام أفلاطون) .

وإننا هنا نواجه طريقاً مسدوداً يصطدم فيه العدد ثلاثة للأقانيم المسيحية بالعدد أربعة للعناصر الأفلاطونية . وهذا هو مأزق الثلاثة والأربعة التي يشير إليها أفلاطون في مقدمة طيماوس . وكان غوتيه قد التقط هذا بالحدس أثناء حديثه عن البطل الرابع في فاوست : « لقد كان (هذا البطل الرابع في الترتيب العددي) هو الشخص المناسب الذي يفكر عنهم جميعاً) . كذلك فإنك « تستطيع أن تتساءل على جبل أوليمبوس (جبل الآلهة اليونانية) عن الثامن الذي لم يكن يفكر فيه أحد » .

ومن الجدير بنا هنا أن نشير إلى أن أفلاطون بدأ بحثه بأن صوّر لنا اتحاد الضدين في بعديهما ، وعرض لنا هذه المشكلة باعتبارها مشكلة فكرية يمكن حلها بواسطة التفكير ، لكن أفلاطون اكتشف أن حل هذه المشكلة لا يتماشى مع الواقع أبداً ، فالحالة الأولى تتعلق بتثليث قائم بحد ذاته ، أما الحالة الثانية فخاصة بالتربيع . وتلك هي المعضلة التي حيّرت السيميائيين أكثر من ألف سنة وكانت تُسمى ببديهية« العرافة ماري » (التي كانت يهودية أو قبطية) ، وتظهر أيضاً في الأحلام الحديثة . . . من هنا يمكن فهم الكلمات التي افتتح بها أفلاطون طيماوس : « واحد ـ إثنان ـ ثلاثة ـ ولكن أين هو الرابع يا عزيزي طيماوس » ؟ .

ومثل هذه العبارة تبدو أليفة لسمع عالم النفس والسيميائي معاً ، ولا شك في أن أفلاطون كان بالنسبة لهؤلاء كما كان بالنسبة لغوتيه أيضاً يشير إلى سرّ دفين . . ولقد عرف أفلاطون من تجربته الخاصة صعوبة الانتقال من التفكير ببعدين إلى تحقيقه بثلاثة أبعاد واقعية . وكان قد اختلف في هذا الأمر مع صديقه ديونيزوس العجوز الطاغية السراقسي الذي احتال عليه وأراد أن يبيعه عبداً فلم ينج من هذه المكيدة إلا بعد أن افتداه أصدقاؤه . ولقد أخفق أفلاطون بعد ذلك في تطبيق نظرياته السياسية تحت حكم ديونيزوس الأصغر . ومن يومها تخلى عن طموحاته السياسية ، وبدت له الميتافيزيقا أرحب من هذا العالم الذي لا يحكم .

وإذن فقد كان يركز على عالم الفكر ذي البعدين ، وهذا ينطبق بخاصة على طيماوس الذي كتبه أفلاطون بعد خيبة أمله السياسية . ومن المعروف أن طيماوس آخر أعمال أفلاطون . والواقع أن الكلمة

التي افتتح بها كتابه هذا لم تكن دليلاً على مرحه ولا تعزى إلى المصادفة وحدها ، بل كانت تحمل معنى مأساوياً . إن واحداً من العناصر الأربعة غائب لأنه « غير مناسب » .

على أن التاريخ في اقترابه من بداية عصرنا صار يرينا الآلهة تزداد تجريداً وروحانية . حتى يهوه نفسه انصاع لهذا التحول . وفي آخر قرن سبق ولادة المسيح رحنا نشهد في الفلسفة الاسكندرية على تبدل هذه الطبيعة وعلى ظهور مفهومين جديدين للألوهة هما « الكلمة » و« الحكمة » راحا يشاركان يهوه في ألوهيته . وقد ألف الثلاثة معاً ثالوثاً قدم سابقة واضحة جداً للتثليث الذي تبنته المسيحية بعد المسيح .

الآبُ وَالابنُ
وَالرّوح القدسُ

. . . وإذن فـإن التثليث ليست فكرة مسيحيـة أسـاسـاً ، وإنما جاءت من الأديان الوثنية القديمة ، وما يهمنا هنا هو أن أفكار التثليث كـانت تنبع من لا وعي النـاس (لا في آسيا الصغـرى وحـدهـا) ، وكانت هذه الأفكار تبرز هنا وهناك في أماكن مختلفة من الأرض . إن آباء الكنيسة لم يشعروا بالراحة إلى أن أعادوا بناء عـمارة التثليث على غرار نموذجها المصري الأصيل . وهذا ما تم نقله أيضاً لمريم العذراء عنـدما أعلن مجمـع أفسوس في عـام ٤٣١ ميلادي أن مـريم العذراء « ولدت الإلّه » . وقـد تم إعلان ذلـك في المكان الـذي كان يشهـد ترانيم المجد للمعبودة المتعددة الأثداء « ديانا » . وهنا لا بـد من ذكر الأساطير التي شاعت بعد المسيح ، والتي كانت تقول أن مريم لجأت مع الحواري يوحنا إلى أفسوس حيث ماتت هنـاك . وأفسوس كـانت تعبد ديانا .

ويروي لنا الكـاتب المسيحي أبيفانيـوس أن نحلة دينية جـديدة ظهرت في تلك الفترة وراحت تعبد مريم على غرار عبادة الآلهة الوثنية القديمة ، وكانت هذه النحلة تـدعى الكولليـديين . وانتشرت عبـادة مـريم في بعض المناطق المعينـة مثل الجـزيرة العـربية وتـراقيا وسيثيـا

Scythia وكان معظم أتباع هذه النحلة من النساء . وهاجم الكـاتب ايبيفانيوس أتباع هذه النحلة ، ووجه لومه إلى النساء بخاصة فاتهمهن بـأنهن « صغيرات العقـول » . ثم قال ايبيفـانيوس في كتـابـه « نقض مبادىء الفكر الثمانية » : أنه كانت هناك معابد خاصة شيدت لمريم ، كما كان لها كاهنات يحتفلن في أيامٍ معلومة ، فيزيّن العربات بالقطن ويضعن على مقاعد العربة لحماً مشوياً يقدم لمريم ، وبعد ذلك يتناولن الطعام معها . وكانت هـذه الإحتفالات تشبـه القرابـين ويقدم فيهـا اللحم والخبـز أيضاً . وهـاجم ايبيفانيـوس عبادة مـريم بعنف وكتب قـائلاً : « أكـرموا مـريم ودعوهـا لشأنها ولا تعبـدوا إلا الآب والابن والروح القدس . أما مريم فلا تدعوا أحداً يعبدها » .

لقد رافقت عقيدة التثليث الفكر الإنساني وصـارت جزءاً منـه . صحيح أنها تختفي فترة لكنها ما تلبث أن تظهر هنا حيناً وهنالك أحياناً بأشكالٍ مختلفة . وأن علينا هنا أن نوضح أن التثليث المسيحي ليس نقـلاً عن الفلسفة اليـونانيـة أو عن أفلاطـون بخاصـة . إن الصيغـة الأفـلاطـونيـة للتثليث تتنـاقض مــع التثليث المسيحي . . . الصيغـة الأفلاطونية تقدم الخلفية الفكرية لمدلولات جاءت من مصـادر مختلفة تماماً . كانت صورة التثليث المسيحي أفلاطونيـة أما المحتـوى فيعتمد تماماً على عوامل نفسية ومعلومات لا واعية . لهذا فإنه ينبغي علينا أن نميـز بين منـطقية التثليث وبـين واقعه النفسي . هـذا الواقـع النفسي للتثليث هو بدون شك واقع مصر وبابل وآشور القديمة .

ونجـد في هذا التثليث آثـاراً واضحة عن رفض أن تكـون المرأة عنصراً فيه . وكما كان ايبيفانيـوس يدعـو إلى طرد مـريم من ملكوت التثليث وحصره بالآب والابن والروح القدس فإننا نجد في الأناجيل

مثل هذا الموقف الذي وجدناه في أديان مصر القديمة : طرد الأمهات والأخوات والبنات من مملكة التثليث . وهذا يذكرنا بالرفض الفظ المفاجىء الذي واجه المسيح أمه مريم في عرس قانا حين قال لها : « ما لي ولكِ يا امرأة » (يوحنا ٢ / ٤) . بل إنه قبل ذلك حين جاءته إلى المعبد وهو في الثانية عشرة من عمره قال لها وليوسف معها : « لماذا كنتما تطلباني . ألم تعلما أنه ينبغي أن أكون في ما لأبي » (لوقا ٢ / ٤٩) . وإننا لا نخطىء أبداً حين نقول أن المسيحية في هذا الموقف الخاص إنما تقلد الوثنيات القديمة التي كانت تقيم شعائر ذكرية خاصة . هكذا نجد أيضاً بعض القبائل في إفريقيا وأستراليا ما تزال إلى اليوم تمنع النساء من مشاهدة احتضار الرجال كي لا يشاهدن آلام الموت . والمسيحية لا تختلف في موقفها عن هذه الأسرار الوثنية .

هنالك عنصر آخر من التثليث مستوحى من الأديان الوثنية القديمة ويمثل التناقض بين الآب المضيء والابن المظلم . إن العالم السفلي الذي ينزل إليه الابن هو عالم مدنس وشرير ، عالم الإنسان الذي لم ينضج بعد . ووظيفة الابن (الإلّه المتجسد) هو أن يقدم نفسه ضحية من أجل أن يخلص العالم من الأذى . وهذه النظرية موجودة في التصور الفارسي القديم للإنسان الأول الملقب جيومارت . فجيومارت هذا هو ابن إلّه النور . إنه يسقط في الظلمات ، ويجب أن يخرج منها كي ينقذ العالم . مثل هذا الإلّه كان النموذج الأصلي للمخلص الذي تبنته المسيحية .


الرموز

المقاطع التي تحلل التثليث أو تفسره قليلة جداً في الأناجيل . أما حين يرد ما له علاقة بالتثليث فإنه يكون شكلياً صورياً غير فكري ، على شكل عبارات تبارك ولا تفسر . إننا نجد في رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس : « نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله وشركة الروح القدس مع جميعكم » (١٣ / ١٤) . ونقرأ في بداية رسالة بطرس الأولى : « المختارين بمقتضى علم الله الآب السابق في تقديس الروح للطاعة ورشّ دم يسوع المسيح . لتكثر لكم النعمة والسلام » (١ / ٢) . ونجد في الرسالة الأولى للقديس كليمنت (٤٦ / ٦) : « ليس لدينا إلّه واحد ومسيح واحد وروح قدس واحدة » . وكتب ايبيفانيوس يقول : « إن المسيح علم تلاميذه أن الآب والابن والروح القدس شيء واحد » . وكان ايبيفانيوس قد أخذ هذا المقطع من الإنجيل السري المسمى « إنجيل المصريين » ، وهو إنجيل لا تعترف به الكنيسة . وللأسف فإنه لم يبقَ من هذا الإنجيل إلا بضعة إصحاحات . وهذا التعريف بالتثليث كما يستشهد به ايبيفانيوس يقدم لنا نقطة انطلاق جديدة لتصور شكلي للتثليث .

وليست مشكلتنا مع العهد الجديد الذي لا يتضمن أية صيغة أو

تعريف للتثليث إنما يهمنا هو أننا نجد فيه ثلاثة أشكال ترتبط ببعضها ارتباطاً وثيقاً : الآب ، والابن الذي وُلد من الآب بواسطة الروح القدس ، ثم الروح القدس . وإننا لنجد منذ الأزمنة السحيقة أن لكل الصيغ المقدسة صفة ثلاثية سحرية . وعلى الرغم من أنه ليس هنالك من برهان على وجود نظرية للتثليث في العهد الجديد فإننا نجد فيه ـ على الأقل ـ إشارات إليه ، كالإشارة إلى الأشخاص الآلهية الثلاثة . كل ذلك يقدم لنا معالم للمثال الأصيل الذي كان يعمل في أعماق (المؤمنين حديثاً) ويقدم أشكالاً ثلاثية . وهذا يدل على أن المثال الأصيل التثليثي هو النموذج الناشط في الإنجيل . أما ما يتبع ذلك فنتيجة لما سبق وانتهى . . . وإننا سنرى عند مناقشة العقائد لاحقاً أن آباء الكنيسة في المجامع المختلفة طوروا وزادوا إشارات العهد الجديد إلى التثليث بصورة دائبة إلى أن أعادوا ألوهة المسيح من غير وعي ، فقد كان آباء الكنيسة لا يعرفون شيئاً عن المثال المصري الذي سبق والذي قال بألوهة الآب . أما ما ترتب على ذلك بعدها فكان من الصعب تفاديه خاصة بالنسبة للتصورات السابقة (التي عرفتها الشعوب الوثنية القديمة) للتثليث ، والتي كانت سائدة في بداية المسيحية على شكل متطور نسبياً عن النموذج الأصلي . وعلى الرغم من أن هذا التطوير كان ساذجاً متهافتاً فإنه في الواقع دليل مباشر على أن ما يشير إليه العهد الجديد هو التثليث . وهذا ما كانت الكنيسة تؤمن به .

وبما أن أحداً لم يكن يعرف ما الذي أوحى به إلى ابن الإنسان (المسيح) ، وبما أن الناس كانوا يقتنعون بالتأويلات السائدة فقد أدى مثل هذا الإيمان مع تقادم الزمان إلى أن يكشف المثال الأصيل

(للتثليث عند الوثنيين القدامى) في وعي الناس . بكلام أوضح : إن هذا النموذج تحلل بين الأفكار التي نقلت واقتبست من ثقافات العصور القديمة . وانطلاقاً من هذه الأصداء نستطيع أن نعرف ما الذي كشف عن نفسه في التماعة مفاجئة ، ولخم عقول البشر على الرغم من أن ما حصل كان وراء إدراكهم ، وكانوا عاجزين عن وضعه في صياغة واضحة .

وقبل أن يتم الكشف عما أوحي به وصياغته بالشكل المناسب لا بد من زمن ولا بد من مسافة . إن نتائج هذا النشاط الفكري انتظم في سلسلة من العقائد التي تم تلخيصها لاحقاً تلخيصاً ملائماً ، وهذا الموجز من الاعتقادات يستأهل أن يسمى بالرموز ، فهو من نظرة نفسية يعطي تعبيراً لهذه الاعتقادات ولكنه يصور تصويراً تجسيدياً للحقيقة السماوية التي لا يمكن البرهنة عليها ولا تفسيرها عقلانياً . وإنني أستخدم كلمة « سماوي » أو « علوي » بالمعنى النفسي الضيق .

الرمز الرسولي

ونجد تفسيراً للتثليث في نص للقديس أبروز الذي يقول : إن كنيسة ميلانو وضعت نصاً يعرف بعنوان « عقيدة تلاميذ المسيح » وفيه ما يلي : « إنني أؤمن بالرب الآب العظيم وبيسوع المسيح ابنه الوحيد الذي أنجبه وهو ربنا ، هذا الابن الذي وُلد من الروح القدس ومن مريم » .

وفي هذا النص نجد ثلاثة أشكال إلٓهية تتناقض تماماً مع الإلٓه الواحد . وهذه العقيدة غير واضحة تماماً مثلما أن موقف الأناجيل غير

واضح أيضاً . إن أكثر التلبيس حول عقيدة التثليث موجود في نصوص بولس ، فنجد في رسالته إلى أهل فيلبي (٢ /٦) يقول : « (المسيح) الذي إذا كان في صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله » . وفي إصحاح آخر يمزج بولس بين المسيح والروح القدس ، ويكرر ذلك في رسالته الثالثة إلى أهل كورنثوس (٣ /١٧) فيقول : « وأما الرب فهو الروح وحيث روح الرب هناك حرية » . وحين يتكلم عن مجد الرب يتكلم عن المسيح . ونحن إذا قرأنا كل الإصحاح من فقرة ٧ إلى ١٨ نراه أيضاً يقصد الله مبرهناً على إلتحام الأقانيم الثلاثة .

رمز غريغوري توماطرغس

ليس صحيحاً أن التثليث قد ظهر في فترة متأخرة (فقد كان قبل المسيحية وعند ظهورها) وكان قائماً منذ بداياتها . وفي هذا الصدد لا بد من أن نذكر رؤيا غريغوري توماطرغس (٢١٠ / ٧٠) حين ظهرت له السيدة العذراء ويوحنا وأملوا عليه عقيدة وطلبوا منه أن يكتبها فوراً : هكذا نهض غريغوري من نومه وكتب ما أُملي عليه . وقد جاء في النص :

إلّه واحد ، والد الكلمة الحية ، الحكيم القوي . أب كامل لابن كامل على صورته . أبو الابن الوحيد . إلّه واحد ، واحد الأحدية ، رب الربوبية ، ولا مثيل لربوبيته ، الكلمة الحية ، الحكمة الشاملة التي وسعت كل شيء ، والقوة التي خلقت كل الخليقة ، الابن الحق لآب حق ، الابن الخفي لآب خفي ، مظهر عن مظهر ، خالد من خالد ، المؤبد عن المؤبد . وروح قدس واحد أوجده الله وأظهره

الابن، صورة الابن ، وكمال صورة الآب ، الحياة وسبب الحياة . . . » .

والواقع أن عقيدة التثليث هذه قد قامت قبل رؤيا غريغوري بزمانٍ طويل . وكان غريغوري هذا تلميذاً مريداً للكاتب المسيحي الكبير أوريغن الذي ألّف عن عقيدة التثليث وقوتها الباطنية . ويقول أوريغن في كتابه عن المبادىء الأولى : « إنني أعتقد أن الله الذي يمسك بشتات الكون كآب هو فوق كل الكائنات . أما الابن الذي هو أقل درجة من الآب فهو أعلى درجة من الكائنات العقلية لأنه يأتي بعد الآب مباشرة . أما الروح القدس فأدنى مرتبة من الآب ومن الابن ، غير أن الروح القدس يسكن في القديسين . هكذا نجد أن الآب أقوى من الابن ومن الروح القدس ، لكن قوة الروح القدس تتجاوز كل شيء مقدس » . ولم يكن أوريغن واضحاً تماماً في الحديث عن طبيعة الروح القدس لأنه يقول بالتالي : « إن روح الله التي تحركت في المياه عند بدايات خلق الكون ليست سوى الروح القدس كما أفهمها أنا » .

النيقيانية

حين أطلق مجمع نيقية في عام ٣٢٥ ميلادية عقيدة التثليث وتبناها كانت الآراء المختلفة حول التثليث قد شاعت ، وكان الجدال قائماً في كل مكان . وجاء في قرارات المجمع :

« إننا نؤمن بإله واحد آب عظيم خالق كل شيء ظاهر أو خفي . ونؤمن بربٍ واحد هو يسوع المسيح ، ابن الله ، الابن الوحيد الذي

وُلد من الله ، وله جوهر الآب رب الأرباب ، المولود الذي لم يصنع ، وله جوهر الرب الذي صنع كل شيء في السموات والأرض ، والذي سيعود ليحاسب الأحياء والأموات . ونؤمن بالروح القدس ، أما الذين يقولون بأنه كان هنالك زمن لم يكن فيه إله ، أو أنه لم يكن موجوداً قبل أن يولد ، أو أنه وُلد من عدم أو من وجود آخر أو الذين يقولون : « إن ابن الله خُلق وأنه قابل للتغير » فإن الكنيسة الكاثوليكية لا تقرهم عليه ولا توافقهم .

النيقيانية ـ القسطنطينيانية

وفي عام ٣٨٢ تم تعديل جديد للنص الذي أعلنه مجمع نيقية ، وجاء فيه :

« إننا نؤمن بالإله الآب العظيم خالق السموات والأرض وكل ما ظهر فيهما وما بطن . ونؤمن بالرب يسوع المسيح الابن الوحيد الذي وُلد من الله خالق العوالم ، رب الأرباب ، نور الأنوار ، المولود الذي يصنع ، وله جوهر الأب الذي صنع كل شيء ، والذي نزل من السموات وصار لحماً ودماً ليخلصنا نحن البشر . ولقد صار كذلك بواسطة الروح القدس ومريم العذراء ، وصار إنساناً وصُلب في عهد بيلاطس ، وتألم ودُفن وبُعث في اليوم التالي ، كما قالت الكنيسة المقدسة ، وصعد إلى السماء ، وجلس على يمين الله الآب . ولسوف يعود ثانية ممجداً لكي يُحاسب الأحياء والأموات . وليس هناك من نهاية لملكوته . ونؤمن بالروح القدس ، بالرب صانع الحياة الذي ينبع من الآب والذي نعبده ونمجده مع الآب والابن . والذي تكلم الأنبياء بواسطته . وإننا نؤمن بكنيسة كاثوليكية واحدة ، وبعمادة واحدة

للتكفير عن الخطايا . وإننا لفي انتظار بعث الموتى وحياة العالم الآتية . آمين » .

وفي هذا النص نرى كيف ارتقى الروح القدس إلى مرتبة « الرب » وصار يعبد كما يعبد الآب والابن . لكنه هنا ينبع من الآب . وهذا ما أثار الجدال العنيف بين آباء الكنيسة فهناك من كان يعتقد أنه نبع من الابن أيضاً ، بما أن الابن إلّه أيضاً . ومن أجل تفادي أخطار هذا الجدال وقطع دابره فقد اضطرت الكنيسة إلى أن تخترع نصاً آخر عدلت فيه ما جاء في عام ٣٨١ ، وجاء في هذا النص الذي يعتبره الكثيرون من المسيحيين المتفتحين العقلانيين إهانة للعقل . وهذا مقطع من النص الذي يُعرف بعنوان : « لمن يريد الخلاص » :

« تقوم العقيدة الكاثوليكية على الإيمان بإلّه واحد في الثالوث ، وتؤمن بالثالوث المتوحد . إننا لا نمزج أحداً بالآخر ولا نقسم الجوهر ، فهناك واحد يمثل الآب وآخر يمثل الابن ، وآخر يمثل الروح القدس ، لكن الألوهة للآب والابن والروح القدس واحدة ، فمجدها واحد وجلالتها أبدية . وكما هو الآب كذلك هو الابن والروح القدس . الآب الذي لم يخلق والابن الذي لم يخلق ، والروح القدس الذي لم يخلق . الآب السرمدي ، الابن السرمدي ، الروح القدس السرمدي . الآب الخالد ، الابن الخالد ، الروح القدس الخالد . وبرغم ذلك فليس هنالك ثلاثة خالدون ، بل واحد خالد ، وليس هناك ثلاثة غير مخلوقين بل واحد ، وليس هناك ثلاثة سرمديون بل واحد سرمدي غير مخلوق . وكما أن الآب عظيم ، فكذلك الابن وكذلك الروح القدس ، ومع ذلك فليس هنالك ثلاثة عظماء بل واحد

عظيم . وكما أن الآب إله ، كذلك فإن الابن إله ، وكذلك فإن الروح القدس إله . ومع ذلك فليس هناك ثلاثة أرباب بل رب واحد . وإننا بإيماننا المسيحي ملزمون باعتبار كل واحد من هؤلاء الثلاثة إلهاً ورباً في آنٍ ، ولكننا ملزمون أيضاً بإيماننا الكاثوليكي بأن لا نقول بآلهة ثلاثة أو أرباب ثلاثة . إن الآب مصنوع من عدم ولم يخلق ولم يولد . أما الابن فإنه من الآب فقط ، وهو غير مصنوع ولا مخلوق ولا مولود . أما الروح القدس فهو من الآب والابن معاً ، وهو لم يخلق ولم يصنع ، بل ينبع منهما ، وبالتالي فإن هنالك أباً واحداً لا ثلاثة آباء ، وابناً واحداً لا ثلاثة أبناء ، وروح قدس واحداً لا ثلاثة أرواح قدسية . وفي هذا التثليث ليس هناك واحد قبل الآخر أو بعده ، كما ليس هنالك أعظم أو أقل عظمة ، فالثلاثة خالدون معاً ومتساوون . . وهكذا إذن يجب عبادة الثلاثة عبر الواحد وعبادة الواحد في الثالوث . إن على كل من يريد الخلاص أن يفكر بالتثليث كما ذكرنا » .

وبرغم هذا النص فقد ظل الجدل حامياً بين أبناء الكنيسة حول التثليث حتى عام ١٢١٥ حين أعلن مجمع لاتران المزيد من « الغربلة » لعقيدة التثليث والتي ظلت سائدة حتى يومنا هذا ، وجاء فيها :

« إننا نؤمن إيماناً جازماً ومن أعماق قلوبنا بأن هنالك إلهاً واحداً خالداً لانهائياً لا يحول ولا يزول ، إلهاً لا نفهمه ، عظيماً لا يمكن التعبير عنه : الآب والابن والروح القدس . ثلاثة أقانيم لكنهم جوهر واحد بسيط جداً في مادته وطبيعته . إن الآب لم يولد من شيء ، وإن الابن صدر عن الآب فقط ، أما الروح القدس فقد صدر عن الإثنين معاً ، وذلك إلى الأبد وبلا نهاية . الآب ينجب ، والابن يولد ،

والروح القدس ينبثق . وكلهم متساوون في العظمة والخلود » .

وواضح أن الروح القدس ينال أهمية كبرى في هذه العقيدة الجديدة . ولا أرى أن العقائد الأخيرة التي أعلنها مجمع ترانت قد أضافت شيئاً جديداً . . .

الأقانيم الثلاثة
على ضوء علم النفس

فرضية المثال الأصيل

عندما تطورت فكرة التثليث عبر القرون حاولت أن تتفادى بل حاربت كل التيارات العقلانية وخاصة ما سُمي بـ « الهرطقة الآريوسية » التي كانت تذهب إلى أن المسيح إنسان وليس إبناً لله . وكان تطور عقيدة التثليث يراكم أفكاراً لم تكن في الواقع إلا تعتيماً وكبحاً للتفكير الحر العقلاني . بذلك كانت التصريحات الدينية غير عقلانية بالمعنى الحرفي للكلمة ، فقد كانت تضع في حسابها دائماً عالم المثال الأصيل (للتثليث ، وهو العالم الذي عاشته الوثنيات القديمة وانتقل إلى المسيحية) عن طريق اللاوعي .

والتطوير المسيحي للتثليث نسخ ـ من غير وعي ـ المثالَ المصري القديم لفكرة الآب والابن « رع ـ موتف » والتي كانت سائدة في اللاهوت المصري . وكنت قد ذكرت قبلاً أن « المثال الأصيل » عامل لا يمكن تمثيله ، فهو نزعة تعمل في مرحلة معينة من الفكر البشري ، وترتب مادة الوعي ضمن أمثلة أصيلة معينة . هكذا نجد أن تصورات

الإنسان لله كانت منتظمة في مفاهيم تثليثية وآلهة مثلثة ، بل أن كثيراً من الشعائر والممارسات السحرية كانت تعتمد على أساس ثلاثي ، كشعائر المباركة أو اللعنة أو الثناء . . إلخ .

إن لهذا المثال الأصيل قوة كبيرة أينما وجدناه ، فهو ينبع من لاوعي الإنسان ، أما حين نجد آثاره واعية فإنها تتميز بطابع مقدس . وليس في مفهوم المثال الأصيل أي إختراع مقصود أو عقلنة على الرغم من أن التصورات التي عرفت للتثليث كانت متهمة بذلك . وكان هذا المفهوم قد شهد كل أنواع الجدل والسفسطة والمناورة والدسائس والصراعات الممكنة . وكان ذلك وصمة عار في تاريخ عقيدة التثليث التي قامت أصلاً على الآثار القوية للمثال الأصيل (المستمد من الوثنيات القديمة) كما قامت على الجهود القاتلة لعقلنة هذه العقيدة . وعلى الرغم من أن الأباطرة استخدموا هذه العقيدة استخداماً سياسياً أدى إلى خلافات وانشقاقات كثيرة فإن هذا الفصل العجيب من تاريخ الإنسانية لا يمكن تفسيره بالصراعات السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية وحدها . إن التفسير الوحيد يكمن في « الرسالة » المسيحية التي أثارت ثورة نفسية في الإنسان الغربي . فلقد أعلنت هذه الرسالة في أناجيلها ، وفي رسائل بولس بخاصة ، عن « ظهور الله ـ الانسان في هذا العالم الممل ، ومعه بالطبع كل الخوارق الخاصة التي يستأهلها ابن الله » . وبالرغم من غموض المصدر التاريخي لهذه الظاهرة كما يتضح لنا الآن نحن الذين نعشق معرفة الوقائع الصحيحة فإن من المؤكد أن هذه العقيدة أثارت آثاراً نفسية خطيرة دامت قروناً طويلة .

غير أن الأناجيل للأسف لا تسعفنا بما يساعدنا على بناء تاريخ واضح . وربما أنه بسبب هذا التقصير يخبرنا التاريخ عن ردات الفعل

القوية للعالم المتحضر في تلك الفترة . وردات الفعل ما زالت مستمرة إلى جانب البيانات والتصريحات التي تُنسب دائماً إلى « روح القدس » . وهذا التأويل الذي يقف عالم النفس أمامه مرتاباً في صحته وحقيقته الميتافيزيقية فإنه يدل على أن عقل الإنسان في بعض الأحيان لا يشكل العامل الأساسي في اختراع الأفكار دائماً وأبداً ، وأن هناك نزعة قوية متسلطة موجودة وراء اللاوعي . وهذا الواقع النفسي ليس واقعاً نظرياً ولا يمكن اعتباره دائماً واقعاً نظرياً . . .

والقول بأن هذه العقائد مستوحاة من الروح القدس هي دليل على أنها ليست نتيجة معرفة واعية بل إنها تنبع من مصادر خارج الوعي وخارج الإنسان . . . وعلم النفس يستعمل مفهوم اللاوعي . وخاصة مفهوم اللاوعي الجماعي في مقابل اللاوعي الفردي . . . إن الشيوعيين مثلاً يكتفون بالقول بأنهم يرجعون إلى انغلز وماركس ولينين وغيرهم من آباء الحركة (الشيوعية) . وهم بذلك يجهلون أنهم بشيوعيتهم هذه إنما يبعثون « مثالاً أصيلاً » (من الوثنيات القديمة) كان سائداً في الأزمنة البدائية . وهذا ما يفسر الطابع السلطوي أو «التقديسي » للشيوعية . كذلك فإن آباء الكنيسة يجهلون أنهم بتثليثهم إنما يبعثون رمزاً وثنياً يعود إلى آلاف السنين .

وهنا لا بد من القول بأن عقيدة التثليث تتماشى مع المجتمع ذي النظام الأبوي ، لكننا لا نعرف ما إذا كانت الظروف الاجتماعية هي التي أنتجت هذه الفكرة ، أو ما إذا كانت هذه الفكرة وراء بنية هذا النظام الاجتماعي . إن ظاهرة المسيحية ، وظهور الإسلام إنما تقدمان لنا مثلين على ما تفعله الأفكار . إن الإنسان العادي الذي لا تتاح له فرصة مراقبة عمل « المركبات المعقدة » يميل إلى إرجاع أصل المضمون

النفسي إلى البيئة . . . والواقع أنه كلما كان المثال الأصيل قوياً (في الديانات الوثنية القديمة) كانت جاذبيته أقوى ، ومنه ينبع التصريح الديني الحديث سواء كانت صياغة ذلك في تصريح « إلهي » أو تصريح شيطاني . مثل هذه البيانات والتصاريح (التي تصدر عن الهيئات والمؤسسات الدينية) تدل على أن الناس يسكنهم هاجس المثال الأصيل من هذه الوثنية أو تلك . أما الأفكار النابعة من هذه البيانات والتصاريح فإنها مجسدة بالتأكيد ، وتختلف عن مثالها الأصيل الذي لا يمكن تمثيله لأنه غير واعٍ .

. . . وهكذا فإن تاريخ التثليث يظهر وكأنه بلورة تدريجية للمثال الأصيل المتحدر من الوثنيات القديمة قد صاغ التصورات التجسيدية للآب والابن ، وللحياة ، وغير ذلك من أشخاص ، وذلك وفق المثال الأصيل ، وعبر صورة خارقة هي صورة الثلاثة الأكثر قداسة في واحد . أما الذين شهدوا هذه الأحداث فأدركوها على أساس يسميه علم النفس الحديث بالحضور النفسي خارج الوعي . . . وهنالك الآن أنواع مماثلة من هذا الحضور نراه في الإيديولوجية الفاشستية وفي الشيوعية ، الأولى التي تركز على سلطة الزعيم ، والثانية التي تركز على توزيع الثروة على طريقة المجتمعات البدائية . . . ويقول المفكر كوبغن في كتابه « عن غنوصية المسيحية » : « إذا كان هنالك تاريخ للعقل الغربي فإنه يجب أن ينظر إليه من وجهة نظر شخصية الإنسان الغربي الذي ترعرع في ظل هيمنة العقيدة التثليثية . . . » .

المثال الأصيل للمسيح

يبدو الثالوث بصفاته الباطنية مثل حلقة مغلقة ، أو مثل دراما

إلهيـة يمثل فيها الإنسان في أحسن الأحوال دوراً سلبياً مرهقاً بالتثليث. ولقد ظل الإنسان على مدى القرون الطويلة مجبراً بالتثليث مضطراً إلى أن يعمل فكره بحماسة شديدة جداً ليهتم بقضايا ومسائل غريبة تبدو لنا الآن غامضة مبهمة إن لم تكن عبثية. ولا بد لنا من القول أول كل شيء أنـه يصعب علينا أن نفهم مـا يعنيه التثليث لنـا، سـواء عـلى المستـوى العملي أو المستـوى الأخلاقي أو الـرمزي. إن الـلاهوتيـين أنفسهم يشعرون أحياناً بأن المناقشات حول هذه القضية تظهر وكأنها نـوع من أنواع الشعـوذة الفارغـة وغير المجـدية، بـل أن كثـيراً من اللاهوتيين لا يرتاحون إلى فكرة تأليه المسيح ويعتقدون أن حشر الروح القـدس هنا إحـراج لا معنى لـه. وكـان البـاحث الألمـاني د.ف. سـتراوس قد كتب يقـول: «الحقيقة أن كـل من يعلن إيمـانـه بهـذه العقيدة إنما يعلن تخليه عن كل قوانين التفكير البشري». ولا شك في أن الإنسان الوحيد القادر على مثل هذا القول هو الإنسان الذي نزع القداسة عن هذه الأفكار واستعاد نشاطه الذهني.

ومثل هذا عـلى علاقـة بالمثـال الأصيل (المستمـد من الديـانات الـوثنية) كـما أنه خـطوة تراجعيـة، فالأنسنـة الحرة للمسيـح تضرب أعماقها في العقائد المسيحية الأولى التي ناهضت التأليه، بينما نجد أن مناهضة التثليث في عصرنا الحاضر تطلق تصوراً لـلألوهـة أقرب إلى اليهودية أو الإسلام منه إلى المسيحية.

ولا شك في أن كل من يحاول التعرض لمسألة التثليث من وجهة نظر فكرية أو عقلانية سيضطر إلى الجدل والخصام والتعرض لغوغائية آباء الكنيسة الفارغة من المعنى. إن عودة الإنسان، وخصوصاً رجل اللاهوت، إلى العقل والمنطق وأشباههما يدل على أن كل الجهود التي

بذلتها المجامع المسيحية واللاهوت قد فشلت ولم تستطع أن تقدم للأجيال تصوراً فكرياً لهذه العقيدة يجعلهم يدعمونها أو يتعاطفون معها على الأقل . وهنا لا يبقى إلا الإذعان للإيمان والإقلاع عن الفهم . فالإيمان هنا كما دلت التجربة يفوز لكنه يخلي مكانه للنقد الذي قد لا يكون آهلاً جديراً بالتعرض لموضوع الإيمان . وهذا النقد غالباً ما ينشر مناخاً تنويرياً عقلياً . ولكن لم يخطر ببال أحد من هؤلاء النقاد أن طريقة معالجة هذا الموضوع خاطئة وأنها لا تتناسب معه أبداً . إنهم يعتقدون أنهم يعالجون حقائق عقلية ويتناسون أن هذه المسألة كانت دائماً ظاهرة نفسية لاعقلانية . ونحن نرى ذلك واضحاً في الطبيعة اللاتاريخية للأناجيل حيث كان الإهتمام الأول لها هو عرض خوارق المسيح بأقصى ما يكن من تأثير وحيوية . ويتجلى ذلك أكثر ما يتجلى في الشهود الأوائل مثل بولس الذي كان أقرب كتبة الأناجيل (الرسل) إلى الأحداث . وأنه لمما يؤسف له حقاً أن نرى بولس يمنع المسيح من الحديث عن نفسه ولا يسمح له بالتفوه بكلمة واحدة . كان المسيح الحق في تلك الفترة المبكرة جداً (ليس في إنجيل يوحنا فقط) محجوباً بغشاوة كثيفة بل منفياً وراء سحابة من المفاهيم الميتافيزيقية : الحاكم على كل القوى الشريرة ، المخلص الكوني ، الواسطة بين البشر والله . وواضح أن كل اللاهوت الذي سبق المسيحية وكل لاهوت الغنوصية في منطقة الشرق الأوسط ، بل اللاهوت الذي تضرب جذوره في أعمق أعماق التاريخ قد حجب المسيح الحق عنا وجعله مجرد شكل عقائدي لا يحتاج معه إلى أساس تاريخي . وإذن ففي مرحلة مبكرة جداً يختفي المسيح الحق وراء المشاعر والإسقاطات التي حامت حوله وانهالت من القريب والبعيد .

وهكذا سرعان ما تم « ابتلاعه » من قبل الأنظمة الدينية المجاورة كما تمت صياغته من جديد وفقاً لأساطيرهم الأساسية . بذلك صار المسيح الصورة الجماعية « الملفقة » التي كان ينتظرها لاوعي المعاصرين لـه . وبذلك صار السؤال عن حقيقته سؤالاً بدون جواب . . .

وهنالك الكثير من الدلائل على أن اللاوعي الجماعي كـان نشطاً جداً ، خاصة إذا اعتمدنا على المقارنات في تاريخ الأديان . وهنا لا بد من السؤال عما جعل الناس يؤمنون بالرسالة المسيحية ؟ أما إذا أردنـا الجواب عن هذا السؤال فإن علينا أن نسبر الرمز المسيحي الموجود في العهـد الجـديـد ، بـالإضـافـة إلى رمـوز آبـاء الكنيسـة المنشـورة في نصوصهم . وفي رسوم القرون الوسـطى ، وأن نقارن كـل ذلك بمـا يتضمنـه الـلاوعي من رمـوز أصيلة (مستـمـدة من الـوثـنيـات القديمة) . . . إن كل التقارير الأسطورية التي قدمتها المسيحية وغـير المسيحيـة تعبر عن تصـورات أسطوريـة نعثر عليهـا غالبـاً في أحـلام النـاس . وهي جميعاً تـدور حول الحلم بكـائن بالـغ القوة ، وبـطل كامل . إنها تشبه أحلام الناس بحيوانات ذات صفات سحـرية ، أو بتركيبة سحرية ، أو بكنز من جواهر ، أو بخاتم أو تاج . . .

الروح القدس

إن العلاقة النفسية بين الإنسان وبين مجرى حياة الثالوث تبرز أول ما تبرز في الطبيعة الإنسانية للمسيح ثم بهبوط الروح القدس وسكنه في الإنسان على الـطريقة التي بشرت بـه المسيحية ودعت إليـه . لقد كانت حياة المسيح قصيرة ، وكانت مقدمة تاريخيـة لإعلان رسـالته ، لكنها كانت في المقابل (كما ترويها الأناجيل ويقول عنها آباء الكنيسة)

برهاناً على . . . هبوط الروح القدس على الفرد .

غير أننا هنا نجد أنفسنا أمام صعوبة كبيرة جداً لأننا إذا تابعنا نظرية الروح القدس ودرسناها بعمق أبعد مما درسته الكنيسة التي رفضت الغور في هذه الدراسة لأسبابٍ صارت واضحة فإننا سنصل حتماً إلى النتيجة التالية : إذا ظهر الآب في الابن وتنفسا معاً ، وإذا ترك الابن وراءه الروح القدس للإنسان ، فإن هذا يعني أن الروح القدس يتنفس في الإنسان أيضاً ، وهكذا يصير الإنسان متضمناً في بنية التثليث الذي يشترك فيه الآب والابن والروح القدس في نفسٍ واحد . هذا يعني أن كلمة المسيح الواردة في إنجيل يوحنا : (. . . إنكم آلهة » (١٠ / ٣٤) تظهر لنا هنا مضاءة بضوء خاص . إن مسألة أن المسيح ترك وراءه الروح القدس للإنسان تطرح مشكلة عويصة . فتثليث أفلاطون هو في الواقع آخر كلمة يمكن أن تُقال في مسألة المنطق ، غير أنه من الناحية النفسية شيء مختلف تماماً لأن العامل النفسي ما زال يتدخل بطريقة محرجة ويطرح السؤال : لماذا ، باسم كل ما هو جميل رائع ، لم يقل مثلاً بثالوث « الآب ، الأم ، الابن » ؟ أليس ذلك أكثر منطقية وطبيعية من ثالوث « الآب ، الابن ، الروح القدس » ؟ وهنا أيضاً يتوجب علينا القول أننا لسنا أمام حالة طبيعية وإنما أمام إستجابة إنسانية ، أمام نفس وحياة صارتا مجردتين من الطبيعة وصار لكل منهما وجود خاص . هنا نجد أن الابن والآب متحدان في روح واحدة ، أو تماشيا مع وجهة النظر المصرية القديمة « كع ـ موتف » التي سبق أن تحدثنا عنها . إن « كع ـ موتف » هو عين الإفتراض لخاصية التنفس المشترك أو« التراوح » بين الأقانيم المسيحية .

وهـذه الحقيقـة النفسيـة تفسـد الكمال المجـرد لصيغـة الأقـانيم الثـلاثة ، وتجعلهـا غير مفهـومة البنيـة على الاطـلاق ، فقد تم حشر عنصر غريب جداً عن التفكير البشري وذلك بطريقة شاذة ومفاجئة . فـإذا كـان الـروح القـدس (يعمـل) في وقتٍ واحـد كـروح الحيـاة وتنفسها ، وروح المحبة ، والشخص (الأقنـوم) الثالث الـذي يتوج عمليـة التثليث فإنـه إذن اختراع فكـري ، وتصـور أقنـوم حشر مـع الصـورة الطبيعيـة للآب والابن . وإنـه لأمـر ذو دلالـة أن المسيحيـة الغنوصية حـاولت أن توارب حـول هذه الصعـوبة بـأن أولت الروح القدس تأويلاً خاصاً حين اعتبرته الأم . غير أنها بذلك أبقته أيضاً في الدائرة التقليدية لـلأسرة ، وضمن دائرة الآلهـة المثلثة في المجتمعـات الأبوية . إن هذا التفكير يتماشى مع تفكير الأديان التي تمجد الآب . في مقابل ذلك فإن التأويل الأمومي يحصر المعنى الخاص للروح القدس في مجرد صورة بدائية ويقضي على كل الخصـائص والمميزات المنسـوبة إليه ، لا باعتباره الحياة المشتركة للآب والابن فقط بل أيضاً باعتبـاره الروح القدس التي تركها الابن بعده لتبذر في الإنسـان وتثمر بـأفعال وعجائب سماوية . وإنه لأمـرٌ عظيم أن فكـرة الروح القـدس ليست صورة طبيعية ، بل اعتراف بالطبيعة الحية لـلآب والابن ، تلك التي يمكن تصورها تجريدياً حدّاً ثالثاً بين الواحـد والآخر . وعـلى الغالب فإن تأزم الثنائية ينتج عنصراً ثالثاً يبدو متناقضاً شاذاً . هذا يعني أن الروح القدس (كما رسمته المسيحية التاريخية ونصوص الكنيسة) هو بالضرورة متناقض وشاذ . وعلى نقيض الآب والابن فإنه بدون اسم ولا شخصية . إنه « وظائفي » . وهذه الوظائفية هي الأقنوم الثالث في الألوهة المسيحية .

هذا الأقنوم الثالث من الجانب النفسي أمشاج متنافرة فهو خارج العلاقة المنطقية بين الآب والابن ، ثم إنه لا يمكن فهمه إلا كفكرة اخترعها البشر . . . وإذن فإن المرء يحس هنا بأنه أمام بناء عقلي اصطناعي ، على الرغم من أن « الروح القدس » و« كع » المصري ينتميان إلى جوهر التثليث . طبعاً ليس بالضرورة أن يكون التفكير هنا واعياً . . . إن التأويل الديني يركز على أن هذا الأقنوم الثالث مصدره الوحي . وعلم النفس لا يستطيع أن يعترض على مثل هذا المفهوم لكنه يجب أن ينظر في الطبيعة التصورية لهذا الأقنوم ، ففي التحليل الأخير يبدو الثالوث كله شكلاً تجسيدياً إتخذ صورته بالتدريج بواسطة جهد عقلاني وروحاني شاق ، برغم وجود المثال الأصيل (المستمد من الوثنيات القديمة) جاهزاً منذ أزمان سحيقة . . .

تحولاتُ الرموز في القدّاس

نعـثر عـلى وصف للقـداس في رسـالـة بـولس الأولى إلى أهـــل كورنثوس (١١ /٢٣) : « إن الرب يسوع في الليلة التي أسلم فيهـا (روحه) أخذ خبزاً ، وشكر فكسّر وقال : خذوا كلوا هذا هو جسدي المكسور لأجلكم . اصنعوا هذا لذكري . كذلك الكأس أيضاً بعدما تعشوا قائلاً : هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي . اصنعوا هذا كلما شربتم لذكري . فـإنكم كلما أكلتم هذا الخبـز وشربتم هذه الكـأس تخبرون بموت الرب إلى أن يجيء » .

ونعثر على روايات مماثلة في وصف القداس ، وذلك في كـل من إنجيل متى ومرقص ولوقا . أما في إنجيل يوحنا فإننا نرى الفقرة التي تتحدث عن القداس تذكر « العشاء » (ما يعرف بالعشاء الأخير للسيد المسيح عليه السلام مع حوارييه) ، وتقرن ذلك بغسل المسيح لأقدام تـلاميذه . وفي هـذا العشاء يقـول المسيـح الكلمات التي تشرح معنى القداس وجوهره (إنجيل يوحنا ١٥ /١ ـ ٥) : « أنا الكرمة الحقيقية وأبي الكرّام . كل غصن فيَّ لا يأتي بثمر ينزعه . وكـل ما يـأتي بثمر ينفيه ليأتي بثمرٍ أكثر . أنتم الآن أنقياء لسبب الكلام الـذي كلمتكم به . إثبتوا فيَّ وأنا فيكم . كما أن الغصن لا يقدر أن يأتي بثمرٍ من ذاته

إن لم يثبت في الكرمة كذلك أنتم أيضاً إن لم تثبتوا فيَّ . أنـا الكرمـة وأنتم الأغصان » وهذه إشارات ليست مستوحاة من التوراة .

وإننا لا نجد في تاريخ المسيحية إقامة لشعيرة القداس (القربـان المقدس) إلا بعد العام ١٥٠ ميلادي .

والواقع أن القداس هو « القـربان (الـوثني) المقدس » بعـد أن أُضيف إليه كثير من الطقوس المعقدة . وهو يتبع التركيب التالي :

طقوس تمهيديـة ← تقـدمة القربان ← التكريس ← المناولة ← الختام

في قـربان القـداس نجد فكـرتين متميـزتين تتشـابـهان ، **فكـرة « العشاء » وفكرة « القربان »** .

وكلمة **« القربان** مشتقة من الفعل اليوناني « يضحّي » أو يذبح ، غير أن له أيضاً معنى « الإحراق » أو « الإشعـال » . وفي هذا إشـارة واضحة إلى النار التي كـانت الضحية تشـوى عليها وتقـدم للآلهـة . وكانت هذه الضحية أصلاً تُقام لإطعام الآلهة عند الشعوب الوثنية . أما دخان الشواء فكان يحمل الطعام معه إلى الكـائنات العليـا سكان السموات ! وفي مرحلة لاحقة صار الوثنيون يؤمنون بأن هذا الدخان هو الشكل الروحاني للقربان . ولا بد هنا من التذكير بـأن المسيحيين ظلوا حتى فترة متأخـرة من العصور يعتقـدون أن الروح مـادة متبخرة رقيقة الشكل مثل الدخان .

أما « العشاء » فمتحدر من كلمة يـونانيـة تعني « وجبة الـطعام »

التي كان يتقاسمها الذين كانوا يحتفلون بالقربان أو التضحية حيث كان إلههم حاضراً . وهو أيضاً وجبة مقدسة يأكلون فيها طعاماً مقدساً . ولهذا تعتبر تضحية أو قرباناً .

والقداس المسيحي يتضمن هذين المعنيين (معنى العشاء ومعنى القربان أو التضحية) . وهذا ما جاء في الإنجيل على لسان المسيح : « جسدي المكسور لأجلكم » ، وهذا يعني أحد أمرين ، إما أنه أعطي لكم لتأكلوه ، أو أنه أُعطي لله من أجلكم . إن فكرة « العشاء » أو وجبة الطعام تستخدم كلمة « الجسد » بمعنى « اللحم » الذي يؤكل .

وإلى جانب الرواية الأصيلة علينا أن نعتبر ما جاء في رسالة بولس إلى العبرانيين (١٣ / ١٠ ـ ١٥) مصدراً محتملاً للقداس :

« لنا مذبح لا سلطان للذين يخدمون المسكن أن يأكلوا منه ، فإن الحيوانات التي يدخل بدمها عن الخطية إلى الأقداس بيد رئيس الكهنة تحرق أجسامها خارج المحلة . لذلك يسوع أيضاً لكي يقدس الشعب بدم نفسه تألم خارج الباب . فلنخرج إذاً إليه خارج المحلّة حاملين عاره ، لأن ليس لنا هنا مدينة باقية لكننا نطلب العقيدة . فلنقدم به في كل حين لله ذبيحة التسبيح أي ثمر شفاه معترفة باسمه » .

وكمصدر آخر علينا أن نذكر رسالة بولس إلى العبرانيين ٧/١٧ :

« لأنه يشهد أنك كاهن إلى الأبد على رتبة ملكيصادق » .

ويُقال إن شخصية ملكيصادق التي وردت في رسالة بولس إلى العبرانيين قد وردت أيضاً في العهد القديم (ملاخي ١/ ١٠ ـ ١١) :

« من فيكم يغلق الباب بل لا توفدون على مذبحي مجاناً . ليست

لي مسرة بكم قال رب الجنود ولا أقبل تقدمة من يدكم . لأنه من مشرق الشمس إلى مغربها إسمي عظيم بين الأمم وفي كل مكان يُقرّب لاسمي بخور وتقدمة طاهرة لأن إسمي عظيم بين الأمم قال رب الجنود » .

ووفقاً لرسالة بولس إلى العبرانيين (٧ / ٣) فإن ملكيصادق كان : « بلا أب ، بلا أم ، بلا نسب . لا بداءة أيام له ولا نهاية حياة ، بل هو مشبه بابن الله هذا يبقى كاهناً إلى الأبد » . وواضح أن هذه الشخصية كانت تمهيداً لشخصية المسيح التاريخية التي صارت تجسيداً للكلمة .

إن فكرة الرهبنة الأبدية والقربان المقدم لله باستمرار يمضي بنا إلى أحد أهم أسرار القداس ، وهو تحول جوهر الأشياء وتغيره . وهذا ما يشكل العنصر الثالث في القداس . إن فكرة القربان والعشاء لا تشكل سراً في حد ذاتها ، على الرغم من أن احتراق الذبيحة ودخانها (الذي تحول إلى بخور في القداس) المتصاعد ، والرماد المتبقي رموز للوهم البدائي والاعتقاد بتحول الأشياء وتغيرها حيث تكسب بعدها الروحي أو تصبح روحاً . لكن هذا الجانب ليس له أهمية عملية في القداس ، فهو لا يبدو إلا في عملية التبخير الثانوية . أما السر الحق فيكمن في أبدية الرهبنة أو الكاهن الخالد على غرار ما فعله ملكيصادق وعلى غرار التضحية التي يقدمها لله باستمرار . إن ظهور نظام لا زمني يعني أن هناك معجزة حصلت عند تحول الأشياء (المادية إلى روحانيات) . . . إن شعائر القداس تمضي بهذه الأشياء مرحلة مرحلة إلى أن تصل بها إلى الذروة ، أي إلى مرحلة « التكريس » حين يعتقد الكاهن والمصلون أن المسيح نفسه بدأ يتكلم ويقول الكلمات الحاسمة

على لسان الكاهن . في تلك اللحظة يصير المسيح حاضراً في الزمان والمكان ، غير أن ظهوره ليس بعثاً جديداً أو ظهوراً ثانياً كما يتوهم . . .

ترنيمة التحوّل

تقدمة القربان

يرفع خبز القربان المقدس نحو الصليب المعلق فوق المذبح، ويرسم الكاهن إشارة الصليب عليه وعلى طبق القربان. بذلك يدخل الخبز في علاقة مع المسيح ومع موته على الصليب حيث يتحول الخبز إلى «ذبيحة» أو قربان وبالتالي يصبح مقدساً. إن مجرد رفعه فوق المذبح يجعله روحانياً، لأن الرفع أساساً هو عمل روحاني. بل إن جوستين لاحظ ملاحظة مهمة في هذا الباب فقال إن عرض المجذومين المطهرين في المعبد كان نوعاً من «الخبز القرباني»...

تحضير كأس القربان

وتحضير كأس القربان يتخذ طابعاً مهيباً ووقوراً أكثر من تقدمة القربان وتحضير الخبز، فللخمرة عند شاربيها بعد روحاني خاصة وأنها «مخصصة» للكاهن عند الرومان (الكاثوليك). ويضاف قليلٌ من الماء إلى الخمرة هنا أيضاً.

ومزج الخمرة بالماء كان يعتبر طقساً مهماً في الماضي، ولذلك تفسيرات طقسية لا نهاية لها، خاصة لشرب الخمرة أثناء القداس.

كان اليونان يسمون مدمن الخمرة بالشارب الذي لا يمزج خمرته AKRATOPOTES بينما كان الشاربون العاديون يمزجون . وما تزال بعض الكنائس الأرمنية إلى الآن تدع الكاهن يشرب الخمرة صرفاً غير ممزوجة بماء (وهم يقولون إنهم بذلك يحافظون على الطبيعة الإلٓهية للمسيح) . والماء عندهم يعني الوجه الطبيعي أو الجانب المادي من الإنسان . وتقول الكنيسة الكاثوليكية أن المزج يشير إلى طبيعتي المسيح . ويقول مطران قرطاجنة (٢٥٨ م) أن الخمرة تعني المسيح بينما الماء يعني المسيحيين الذين يشكلون جسد المسيح .

ولا بد من مباركة الماء قبل مزجها بالخمرة ، لأن المسيحي يؤمن بضرورة تطهير جسده قبل امتزاجه مع المسيح . وهناك تفسير غير مقنع للماء في رؤيا يوحنا (١٧ / ١٥) : ثم قال لي المياه التي رأيت ، حيث الزانية (يقصد أورشليم القدس) جالسة ، هي شعوب وجموع وأمم وألسنة » . (والسيمياء تقول أن الزنا هو المرادف للمادة الأولى ، أو الجسد غير الكامل الغارق في الظلام . وهذه فكرة مستوحاة من الغنوصية وفهمها للطبيعة) وبما أن الماء غير كامل أو مادة هامشية فلا بد من مباركتها وتقديسها قبل مزجها بالخمرة . وبذلك لا تمزج الخمرة الروحانية إلا بماء طهور ، وهذا يعني أن المسيح لا يتحد إلا مع المصلين الأنقياء الأطهار . ومن هنا فإن لتحضير كأس القربان أهمية دينية خاصة .

وفي زمن كبيريان كان يُقام القربان بالماء غالباً . حتى بعد ذلك كان القديس أمبروز (أسقف ميلانو عام ٣٩٧ م) يقول : في الطلع كان ماء الصخرة يبدو وكأنه دماء المسيح . وقد وردت مناولة الماء في إنجيل يوحنا ٧ / ٣٧ ـ ٣٩ : « وفي اليوم الأخير من العيد وقف يسوع

ونادى قائلاً : إن عطش أحد فليقبل إليَّ ويشرب . من آمن بي كما قال الكتاب تجري من بطنه أنهار ماء حي . قال هذا عن الروح الذي كان المؤمنون به مزمعين أن يقبلوه لأن الروح القدس لم يكن قد أعطي بعد . لأن يسوع لم يكن قد مجد بعد » ، وكذلك وردت في هذا الإنجيل ٤ / ١٤ : « ولكن من يشرب من الماء الذي أعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد ، بل الماء الذي أُعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية » .

والواقع أن جملة « كما قال الكتاب تجري من بطنه أنهار ماء حي » لم ترد أبداً في العهد القديم . ولا بد أنها جاءت من كتابات كان كاتب إنجيل يوحنا يعتبرها مقدسة لكنها غير معروفة لدينا . وربما كانت تعتمد على أشعيا ٥٨ / ١١ : « ويقودك الرب على الدوام ويشع في الجدوب نفسك وينشط عظامك فتصير كجنة ريا وكنبع مياه لا تنقطع مياهه » أو تعتمد على حزقيال ٤٧ / ١ : « ثم أرجعني إلى مدخل البيت ، وإذا بمياه تخرج من تحت عتبة البيت نحو المشرق لأن وجه البيت نحو المشرق » . . .

وتدل طقوس القربان المقدس على أن المسيحيين الأوائل كانوا مهتمين كثيراً بأسرار وألغاز المزج ، وأن عملية مزج الماء بالخمر كانت تعنيهم مرحلة مرحلة . وإننا نجد في إنجيل يوحنا ١٩/ ٣٢ ـ ٣٤ : « وأما يسوع فلما جاءوا إليه لم يكسروا ساقيه لأنهم رأوه قد مات ، لكن واحداً من العسكر طعن جنبه بحربة وللوقت خرج دم وماء » . وللتأكيد على الأهمية الخاصة لما جاء في إنجيل يوحنا فإن بطريرك القسطنطينية في عام ٤٠٧ قال : « إن المسيح عندما كان يشرب الخمر

إنما كان يشرب دماءه نفسها » . . .

إعلاء كأس الخمرة

إن إعلاء كأس القربان إلى الأعلى يعني إعداده لكي يصير روحانياً (بتوهم) تبخر الخمر . ويتم تأكيد ذلك بالدعاء إلى الروح القدس من أجل أن يحول الخمر إلى روح ويسكنها . ثم توضع الكأس على يمين الخبز المقدس ، ويفسر الكاهن ذلك بأن دم المسيح تدفق من الجانب الأيمن من جسده .

التبخير

ويرسم الكاهن علامة الصليب ثلاث مرات فوق الخبز والنبيذ مستخدماً المبخرة ، مرتين من اليمين إلى اليسار ومرة من اليسار إلى اليمين . لماذا ؟ للإشارة إلى الحركة السفلية باتجاه قوى الظلام في الإنسان (من اليمين إلى اليسار) ، ثم من اليسار إلى اليمين باتجاه عقارب الساعة للإشارة إلى العودة إلى النور . بعد ذلك يبدأ الكاهن بتبخير المذبح . وتبخير الذبيحة (القربان) بهذه الطريقة فوق المذبح من البقايا الوثنية القديمة عندما كانوا يقدمون القرابين للآلهة . بهذا التبخير يظن الكاهن والمؤمنون من حوله أن البخور طهر كل المواد ، إضافة إلى أنه طقس يهدف إلى طرد الشياطين التي قد تكون موجودة ، فالبخور يملأ الهواء بالروح ويطرد القوى الشريرة . كذلك فإن البخور يشير إلى الجسد الذي صار روحاً ، كما يعني ارتفاع الصلاة إلى السماء .

بذلك يعتقد (المصلون) أن الهدايا التي قدموها للرب صارت مطهرة بعد أن خرجت من طبيعتها الأصلية وتحولت . كما يعتقدون

أيضاً أن الكاهن وهم معه قد تطهروا بهذه الطقوس وصاروا جاهزين للإتحاد . وهذه هي وظيفة القربان كما سنرى عندما تبدأ صلاة الإستعطاف والإسترضاء من أجل قبول الذبيحة . وتقول الصلاة : « مبارك الذي يجيء باسم الرب » . وتشير هذه الصلاة إلى أن المؤمنين ينتظرون ظهور الرب (الذي استدعته الطقوس السابقة) إنطلاقاً من المبدأ القديم القائل بأن للتسمية قوة الاستدعاء . وهنا يصلون قائلين : « تعال أيها الرب المسيح ، أيها الكاهن الأسمى . تعال واظهر بين أتباعك » . ويعتقد المؤمنون أن المسيح يظهر فعلاً بقوة هذه الطقوس ، وتلك هي ذروة القداس .

التكريس

في القداس الروماني الكاثوليكي يتحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه . وتبدأ صلوات المؤمنين تتلو هذا « التحول » الذي يعتقدون أنه حصل فعلاً ، بينما يلفظ الكاهن كلام المسيح الذي صار حاضراً . وهنا تصير الصلاة بضمير المتكلم على اعتبار أن المسيح هو الذي يتكلم الآن . ومع كلام المسيح يصير الخبز والخمر كاملين أي يصيران جسداً حقيقياً ودماً هما جسد المسيح ودمه. وفعلاً فإن القديس كريزوموس يقول : كلما قلت هذه الصلاة في الكنيسة وفوق المذبح تصبح الذبيحة كاملة في ذلك وإلى أن يعود المسيح ثانية . كذلك يؤكد يوحنا الدمشقي قائلاً : إن للكلام معنى مقدساً مهما كان الراهب أو الإنسان الذي يقوله . إنه حين يلفظ هذا الكلام إنما يجعل المسيح نفسه يتكلم .

وكان مجمع ترانت قد أعلن « أن المسيح نفسه يكون حاضراً في الخبز والخمر المطهرين ، وكذلك في الدم المبارك» . . . وفي القرن

السادس عشر تبنت الكنيسة نظرية أخرى قال بها أسقف مدينة ليون كويستا ومفادها : « أن المسيح يذبح على يد الراهب كل مرة » . . .

ويقول المطران كاباسيلاس في وصفه للقداس الأرثوذكسي : « يكسر الكاهن كسرة خبز صغيرة ويقرأ : « ها قد ساقوه مثل خروف إلى المذبح » . ثم يضع الرغيف على المذبح ويقول : « ها قد ذبح خروف الله ». ثم يرسم إشارة الصليب على الخبز ، ويستل مبضعاً صغيراً يغزه في الخبز ويقول : « لكن واحداً من العسكر طعن جنبه بحربة وللوقت خرج دم وماء » . وعندها يمزج الخمرة بالماء ويرفع الكأس . . .

ما بعد التكريس

هنا تُتلى الصلاة التي تحمل دلالة خاصة والتي أُقدمها هنا كاملة :

« هكذا أيها الرب ، نحن خدامك وأتباعك المقدسين . نتذكر الآلام التي عاشتها نفس السيد المسيح ابن إلهنا ، وقيامته من جهنم وصعوده الممجد إلى السماء . ونحن نقدم لعظمتك وجلالك هذه الهدايا والهبات ، هذا القربان المقدس الطاهر غير المدنس ، الخبز المقدس للحياة الخالدة ، ونقدم أيضاً كأس الخلاص الأبدي من الخطيئة » .

وتتلى الصلاة الثانية :

« أنظر إلى هذه الهدايا أيها الرب نظرة استعطاف واسترضاء وسكينة ، وتقبلها كما تقبلت هبات خادمك الصالح هابيل ، وتضحية ابراهيم الشيخ ، وكما تقبلت قربان الكاهن الأسمى ملكيصادق الذي قدمه لك مقدساً بلا دنس . إننا نضرع إليك بكل تواضع أيها الرب

الجبار أن تأمر الملاك المقدس بحمل هذه الهدايا بيده الطاهرة إلى المذبح المرتفع حيث تصير أمام أنظار جلالتك ، لنتلقى جميعنا أمام هذا المذبح وبفعل المناولة (المشاركة) جسد ابنك المقدس ودمه ، ولنمتلىء بالنعمة السماوية عبر جسد المسيح ، ربنا ، آمين » .

ونجد في الصلاة الأولى إشارة إلى أن المواد المتحولة تدل على القيامة وتمجيد الرب . أما الصلاة الثانية فإنها تذكر بالتضحيات الموجودة في العهد القديم فقد ضحى هابيل بخروف ، وكاد إبراهيم يضحي بابنه غير أن كبشاً حل محله في اللحظة الأخيرة . أما ملكيصادق فلم يقدم ضحية لكنه ذهب لملاقاة ابراهيم محملاً بالخبز والنبيذ . ولا شك في أن هذا المقطع من الصلوات لم يوضع هنا بالمصادفة ، فهو يشكل ذروة القداس . إن هابيل هنا ، وهو الابن ، يضحي بحيوان. أما إبراهيم فهو في الأساس أب ، إنه الأب القبائلي أو العشائري ، وبالتالي فهو أب على مستوى رفيع جداً ، ومع ذلك فقد كان مستعداً لأن يضحي بأعز ما لديه ، أي بابنه الوحيد . على أن ملكيصادق سيد الإستقامة والصلاح كان ـ وفقاً لما ورد في رسالة بولس إلى العبرانيين ـ ملك ساليم كاهن الإِلّه الأعظم المسمى « ال اليون » . ويذكر فيلون البيبلوسي أن ملكيصادق هذا كان إلّهاً كنعانياً لدى قدماء الكنعانيين لكنه لا يتطابق تماماً مع يهوه (إلّه اليهود في التوراة) . وبرغم ذلك فإن ابراهيم يعترف بكهانة ملكيصادق ويدفع له معشار ما يملك . ويقدم السير ليونارد وولي تفسيراً مهماً في تعليقه على الآثار المكتشفة في أور فيقول : « إن « صدّيق هو الاسم الفينيقي لله » . وإن ملكيصادق هذا يقف أمام إبراهيم موقف الكاهن حين يأتي له بالخبز والنبيذ . وعلينا أن نفسر هذا « القربان » أو « التضحية »

تفسيراً رمزياً . ومن هنا نقول أن هذه التضحية الرمزية تتخذ مكانة أسمى من تضحية الابن ، لأنها بالطبع تشير إلى التضحية بشخص آخر . أما ما يقدمه ملكيصادق فهو إشارة إلى تضحية المسيح بنفسه .

تبقى نقطة أخيرة لا بد من توضيحها في الصلاة الثانية ، وتتعلق بمعنى حمل الملاك للهدايا والتضحيات إلى المذبح الأعلى . إن مثل هذا الطلب الغريب في القداس هو إشارة إلى أسطورة تقول أن المسيح قبل أن يصير جسداً (المقصود بشراً) أمر رئيس الملائكة بأن يحل محله على « مذبح الله » (لأن الأسطورة تعتقد أن هذا المعبود لا يستطيع أن يبقى بدون مذبح وذبيحة) طوال فترة نزوله إلى الأرض . وهذه الأسطورة تفسر لنا أيضاً فكرة الكاهن الأزلي ومعنى ارتباط المسيح بملكيصادق .

نهاية القانون الكنسي

يمسك الكاهن بالقربان ويرفعه ، ثم يرسم إشارة الصليب فوق كأس الخمر ثلاث مرات ، ويقول : « بواسطته ، ومعه ، وفيه » . وبعدها يرسم إشارة الصليب مرتين على المسافة التي تفصل بينه وبين كأس الخمر .

كسر الخبز

يقصد بكسر الخبز (تقطيعه) أثناء القداس كسر القوى الشريرة . وعند تكسير الخبز ينشد المؤمنون : خلصنا من كل الشرور الماضية والحاضرة والآتية .

ويتم تقطيع أو كسر الخبز من جزئه الأيسر . وعند الأرثوذكس يقسم الرغيف إلى أربعة أقسام يُكتب عليها :

IC

NI KA

XC

وهي رمز لكلمة يونانية تعني انتصار السيد المسيح . وفي القداس الكاثوليكي عند الإسبان طقوس أكثر تعقيداً وغرابة ، حيث يكسر الخبز إلى نصفين ، ثم يكسر القسم الأيسر إلى خمسة أقسام بينما يكسر القسم الأيمن إلى أربعة أقسام . المجموعة الأولى تشير إلى حياة المسيح على الأرض ، بينما تشير المجموعة الثانية إلى حياته في العالم الآخر .

بعد ذلك ترسم إشارة الصليب على كأس القربان وذلك بواسطة قطعة خبز ، ثم تُلقى قطعة الخبز في الخمر .

وعندما يمتزج الخبز بالخمر يقول الكاهن : برغم أن الخبز والخمر إثنان فإنهما فعلياً واحد . ثم يقول : فليكن هذا المزج والتكريس بين جسد الرب ودمه عوناً لنا .

خاتمة

عندما نتفحص الطقوس التي يتضمنها القداس نجد أنها تشير بوضوح أحياناً وبمداورة ومواربة أحياناً إلى حياة المسيح وآلامه . . . ومن الواضح أن التطور التاريخي للقداس أدى إلى تحويله إلى عملية تصوير حسية للألم الذي عاناه المسيح في مراحل حياته . في الجزء الأول من القداس يتم « التنبؤ » بمجيىء المسيح . إن كلمات التكريس تحاول تصوير تجسد الكلمة وآلام المسيح وتضحيته . وهذا المعنى يتم تكراره أثناء كسر الخبز . وأخيراً يتم تصوير إلقاء المسيح في جهنم ،

ثم نلمح إشارة إلى بعثه في مقطع مزج الخمرة بالماء . . .

و(يعتقدون) أن هنالك وحدة بين كل أجزاء فعل التضحية (التي يمثلها القداس) فكما أن الخبز مصنوع من حبات مختلفة من القمح ، وكما أن النبيذ معصور من عناقيد مختلفة فإن جسد الكنيسة مصنوع من كل المؤمنين بها . بل أكثر من ذلك أن هذا الجسد يتضمن الجنسين : الخمر الذكري والخبز الأنثوي ، وهذا دليل آخر على طبيعة المسيح الخنثى !! .

وإذن فإن القداس يحتوي في جوهره على عملية التجسيد ، وعودة (المسيح) المتجسد إلى وجوده المطلق في ذاته ومع ذاته . إن الإنسان المؤمن الذي يتحول إلى أداة في يد الكاهن هو أيضاً جزء من هذه التركيبة السرية . ومع أن التضحية فعل محبة فإنها هنا تتحول إلى إحتضار وموت نفذهما البشر الذين كانوا الوسيلة والكهنة . إن فظائع الموت على الصليب كانت شرطاً ضرورياً لهذا التحول . . . وهذا ما يعبر عنه القداس بالتناول الحسي لجسد المسيح ودمه .

القدّاس المسيحي
والأديان الوثنيّة

على الرغم من أن القداس ظاهرة فريدة في تاريخ الأديان المقارنة فإن دلالته الرمزية متجذرة في تاريخ الشعوب القديمة قبل المسيحية . إنه يشير إلى تضحية قديمة جداً في تاريخ الإنسانية وهي « التضحية البشرية وما يستتبع ذلك من طقوس » . ومن هنا فإننا نتوقع أن نعثر على أمثلة أصيلة لهذه الظاهرة في التاريخ المبكر للمسيحية وفي عالم الفكر الوثني الذي كان يعاصرها . إن لاهوت القداس يتضمن إشارات إلى تصورات سابقة في العهد القديم ، ويتضمن بالتالي إشارات غير مباشرة إلى الذبائح القديمة بشكلٍ عام . ومن الواضح أن الكنيسة بتبنيها ذبيحة المسيح والمشاركة في لحمه ودمه كانت تستثير الدفائن العميقة في النفس البشرية الوثنية : الذبيحة البشرية (التي كانت تُقدم للآلهة). غير أنني للأسف لا أستطيع أن أُعالج الموضوع من الزاوية الأنتروبولوجية الغنية بل أكتفي بذكر الأعراف الخاصة بذبح الملك في سبيل إخصاب بلاده وإسعاد شعبه . ولا شك في أن إحياء الآلهة وبعثهم بواسطة التضحية البشرية أو تقديم الطعام للطوطم (المعبود الحيواني) كان يهدف إلى توحيد المضحّين بحياة

أجدادهم . وهذا وحده يكفينا للبرهنة على أن رمـوز القداس تضرب عميقاً في النفس البشرية (المؤمنة حديثاً بالمسيحية) . وهذه الرموز من أقدم التصورات الدينية . طبعاً هنالك آراء مسبقة وتحـامل عـلى هذه الـرموز القـديمة ، لا بـين الناس العـاديين وحسب ، وإنمـا أيضـاً في الأوساط العلمية . ومفاد هذا التحامل أن هذه العادات قد اختُرعت في مرحلة تاريخية معينة ثم تناقلتها الأجيال وقلدتها . ومن الخـطر أن نحكم عـلى هذه الـظواهر من خـلال عقليتنا الحـديثـة . إن الـوعي البدائي يختلف عن وعي الإنسان الحديث في كثيرٍ من الأمـور . لهذا فإن الإختراع عند البدائيين مختلف عما نعرفه اليوم . لقد كانت حياتهم تسـير على وتـيرة واحدة جيـلاً بعد جيـل . ولم يكن ما يتبـدل سـوى اللغة . غير أن هذا أيضاً لا يعني أن لغة جديـدة تخترع . إن لغتهم حية ولهذا كانت تتغير بالطريقة التي تظهر فيها اللغة العامية في أميركا وتتدفق . وبالتأكيد فإن الشعائر الدينية ورموزها الكثيرة تـطورت على هذه الطريقة تقريباً ، في أزمنة نجهلها وأماكن متعددة لا نعرفها . . .

ومن هنا فليس مستغرباً أن نعثر على شعائر دينية تقترب كثيراً مما يمارسه المسيحيون . وهنا تحضرني شعائر شعوب الأزتك وخاصة منهم الذين يمارسون شعيرة Teoqualo أي « أكل الله » ، كما سجلها فراي برناردينو الساهاعوني الذي بدأ أعماله التبشـيرية بـين الأزتك في عـام ١٥٢٩ ، أي بعد ثماني سنوات مضت على غزو المكسيك . ويصف لنا الراهب الإسباني دهشته مما رآه . فقد رأى الهنود يصنعون قطعـة من الكعك كبيرة جداً على صـورة معبودهم « هـويتزيلوبـوشيتي » . وكان الهنود يحملون الكعكة المصنوعة من بذور الخشخاش وينشدون :

« وفي اليوم التالي مات جسد هويتزيلوبوشيتي .

أما الذي ذبحه فهو الكاهن كويتز الكوتل . وكان قد قتله برمح مصنوع من حجر الصوان حيث أصابه في قلبه .

ومات الإلّه هويتزيلوبوشيتي أمام موكتيزوما وأمام السادن الذي كلّمه الإلّه حقاً وظهر أمامه وجعل نفسه له قرباناً . كذلك كان هناك أربعة من الكهنة الشباب . وأمام هؤلاء جميعاً مات هويتزيلوبوشيتي .

ولما مات توزعوا جسده بينهم وأعطوا قلبه لموكتيزوما . أما باقي أعضائه فقد وزعت على الباقين .

وفي كل عام كانوا يصنعون الكعكة على صورته ، فيكسرونها ويوزعونها بينهم ويأكلونها وهم يعتقدون أنهم يأكلون جسد معبودهم .

وكانوا يقولون وهم يأكلونها : ها قد أكلنا ربنا . ويقولون أيضاً : إننا نحفظ الله ونحرسه حين نأكله » .

ونحن لا نستطيع أن نتجاهل هذه النصوص القربانية الرمزية : الكعكة التي تشبه خبز القداس ، والإلّه الذي يتجلى أمام الكاهن بما يتجلى المسيح في القداس .

كان هذا التجلي يتم عندما تثقب الكعكة برمح صغير (كما في القداس الأرثوذكسي) حيث يطعن الخبز بمبضع صغير على المذبح .

إن كل ما رآه الكاثوليك في بلاد المكسيك من طقوسٍ وعادات أثارت دهشتهم واستغرابهم لشدة تشابهها مع طقوسهم .

وهنا أيضاً يجب علينا أن نذكر دين ميترا الفارسي القديم الذي انتشر قبيل انتشار المسيحية . ففي الكتب التي تصف هذه الديانة مثل

« الغصن الذهبي » لجيمس فريزر نقرأ عن طقوس مشابهة للقداس المسيحي ومماثلة لها . فهنالك مثلاً الطقس الذي نجد فيه الإلّه ميترا يحمل ثوراً ليضحي به من أجل إخصاب الأرض في موكب مهيب من المؤمنين الذين يحملون المشاعل وينشدون للإلّه ميترا . وهنالك وصف مسهب في كتاب فريزر للمؤمنين بدين ميترا وهم يتناولون الطعام المقدس ، وهو عبارة عن قطع من الخبز مرسوم عليها صلباناً . كذلك فقد تبين أنه كانت هنالك أجراس تستخدم في عبادة ميترا كما تستخدم في القداس المسيحي .

ويرى مؤرخو الأديان أن التضحية في دين ميترا هي أيضاً تضحية ذاتية على غرار المسيح ، بمعنى أن ميترا يضحي بنفسه من أجل إخصاب الأرض وتخليص شعبه تماماً كما يؤمن المسيحيون بأن المسيح حمل صليبه وضحى بنفسه . إن تحول الثور الذبيح ، أو « الذبيحة » إلى الإلّه ميترا نفسه يوازي تحول الإلّه المسيحي إلى طعام هو الخبز وشراب هو الخمر (ثم تحول هذا الطعام والشراب في القداس إلى المسيح نفسه) .

والمقارنة بين ديانة الأزتيك ، أو ديانة ميترا وبين القداس المسيحي ليست إلا غيضاً من فيض الأمثلة الكثيرة التي يمكن ذكرها للمقارنة بين القداس المسيحي وبين الذبائح عند الوثنيين . إن هناك ثروة هائلة من الأمثلة المتوفرة لدى الطرفين . أما آلهة الشرق الأوسط القديم فقد كان كثير منها يموتون شباباً ثم يبعثون من موتهم بعد فترة معلومة . وكل من يعرف شيئاً عن هذه الأديان لا يستطيع إلا أن يلحظ التقارب الكبير بينها وبين القداس المسيحي . وحين جاءت المسيحية كان عالم الشرق الأوسط يعج بآلهة مماثلة لما شهدناه بعد ذلك في « ألوهية »

المسيح . إن عالم النفس ومؤرخ الأديان لا يستطيعان أن ينكرا ما بينهما من علاقة وتأثير .

مِعراج مريم

« معـراج مريم » كتيب سري يتحـدث عن موت السيـدة مـريم عليها السلام ، ويتخيل عروجهـا إلى السماء ، وينسب إليهـا عجائب ومعجزات جاءت بهـا على الأرض . ومـع أن الأناجيـل الأربعة التي اعتمدتها الكنيسة رسمياً لا تفي مريم عليها السلام حقها ، بل تكاد توهم بأنها كانت أقل تفضلاً من أتباع المسيح وأنها كانت امرأة عادية أنكر عليها السيد المسيح فضل أمومتها وأشاح بوجهه عنها متسائـلاً : من هي أمي ؟ فإن كاتب هذا المعراج ينسب إليهـا أفعال الألـوهة ، ويضفي عليهـا صفات الآلهـة الـوثنيـة في حضـارات الشرق الأوسط القديمة .

معراج مريم ، ويُسمى أحياناً بإنجيل مريم مكتوب باليونـانية ، ومنه نسخة باللاتينية . وتقول الموسوعـة اللاهـوتية التي نشرهـا الأب مينيـه عـام ١٨٥٦ (المجلد الثـالث والعشرون) أن هنـاك نسخـة بالعربية ، وأن النص اليونـاني يعود إلى القـرن الثالث الميـلادي ، أو الرابع .

وكـان لهذا المعـراج أو الإنجيل تـأثير كبـير عـلى كنـائس الشرق والغرب ، كما أنه سجل خطياً ديانة عبادة العذراء على طريقة ديانات

الحضارات الشرق أوسطية القديمة ، برغم أن الأناجيل الأربعة كما ذكرنا لا تشير إلى موت مريم عليها السلام وليس هناك من ذكر إلى عروجها إلى السماء . ومع انتشار هذا الإنجيل بين البسطاء من المسيحيين وتأصل أفكاره بين كثيرٍ من المؤمنين اضطرت البابوية إلى أن تضيف عقيدة عبادة العذراء إلى بقية عقائدها وعباداتها ، وصارت أسطورة عروج السيدة مريم إلى السماء ركناً من أركان الإيمان .

وكما سيلاحظ القارىء من النص أن رسل المسيح أو حوارييه في رومة قرروا إكرام ذكرى مريم (عليها السلام) في ثلاث مناسبات وثنية أولها لكي يبيد الجراد المختبىء في الأرض وتخصب المواسم ، والثانية في منتصف أيار لكي لا تظهر حشرات الأرض وتفني الزرع والضرع ، والثالثة في ١٥ آب عندما تينع الثمار على أشجارها . وقد خصصت الكنيسة الكاثوليكية يوم ١٥ آب عيداً رسمياً تحتفل به بصعود مريم عليها السلام . وكان البابا بيوس الثاني عشر قد تبنى هذه العقيدة رسمياً في ١ تشرين الثاني ١٩٥٠ ، لكنه ميز بين تبني عقيدة صعود مريم إلى السماء المستمدة من هذا « الإنجيل » وبين الإنجيل نفسه الذي ما زالت الكنيسة ترفضه وتعتبره من نصوص الهرطقة .

مختارات :

« ورفعت مريم السعيدة وجهها ، ورأت خياماً كثيرة وأفواجاً من الناس في حيرة واضطراب . كانت رائحة البخور تعبق ، وترتيل نشيد الأنشاد يتردد بينما كان الناس يرون هذا البهاء ويسبحون الله .

« وقالت مريم السعيدة : إلَهي وربي من هؤلاء الناس الذين يقفون في هذا المكان ؟ فأجابها : هذا مآل الصالحين ومقامهم ، وهذا

النور الذي يسعى بينهم نور نعمتي عليهم ، وهم في الآخرة يبعثون لا خوف عليهم ولا هم يحزنون وقد آتيناهم بالفرح الأكبر الذي لن ينفد حتى تؤوب الروح اليهم .

« ورأت مريم السعيدة مكاناً أشد ظلاماً ينبعث منه الدخان ورائحة الكبريت ورأت ناراً عظيمة تتأجج وبشراً يستجيرون ويبكون . وقالت مريم السعيدة : إلٰهي وربي من هؤلاء الذين يسكنون الظلمات ولماذا أصابهم العذاب في وقيد النار ؟ فأجابها : هذه جهنم التي أُعدت للآثمين يصلون نارها حتى اليوم الأخير . يوم تؤوب الروح إلى أجسادهم . ولسوف يسامون فيها سوء العذاب لأنهم لم يستغفروا لذنوبهم ، ولسوف يشقون في العذاب المقيم ، وتكون ذنوبهم كالدود الذي لا ينام ولا يموت ، ذلك بأنهم عصوا أمري وكفروا بنعمتي ولم يؤمنوا بأني أنا الله .

« ولما سمعت مريم السعيدة تسبيح الصالحين المتقين فرحت واستبشرت . أما حين رأت ما أُعد للآثمين فقد حزنت واغتمت وتوسلت إلى ربها أن يرحمهم ويغفر لهم ضعفهم فوعدها بذلك .

« ومضى بها إلى الجنة المقدسة البهية يحف بها القديسون والصالحون جميعاً » .

ووصلت إلى مختلف المدن رسائل الحواريين الذين كانوا في روما ، ووردت إلى بطرس وبولس ويوحنا كتب أوصتهم بأن يعلنوا على الملأ عجائب مريم السعيدة ، فكانوا هم الذين نشروا عجائبها بين الناس .

وهذه نبذة منها :

« كان في البحر مراكب اثنان وتسعون تتلاطمها الرياح العاصفة والأمواج العاتية . وراح البحارة الخائفون يستنجدون بمريم ويتوسلون إليها فظهرت لهم فجأة ونجوا جميعاً لم يمسسهم سوء .

« وكان قوم على سفر فدهمهم اللصوص وأرادوا نهب ما معهم ، فاستغاث المسافرون بمريم فظهرت عليهم ولم يمسسهم سوء » .

وحين علم الحواريون في رومة بأنباء المعجزات التي جاءت بها مريم حمدوا الله وفرحوا واستبشروا ، وكتبوا عما صنعته في حياتها وبعد مماتها . . .

وقال الحواريون : إننا نريد أن نكرم ذكراها ثلاث مرات في السنة لأننا نعرف أن الملائكة جميعاً تُحيي عيدها وتسعد به ، ولأن الأرض ستعرف خلاصها بها .

وقرر الحواريون أن يحيوا ذكرى مريم أول مرة في اليوم الثاني لولادة المسيح وذلك من أجل أن يبيد الجراد المختبىء في الأرض وتخصب المواسم ، ومن أجل أن تحمي الملوك وتقيهم التحارب والتقاتل . وقرروا أن يحتفلوا بذكراها ثانية في منتصف أيار لكي لا تظهر حشرات الأرض وتفني الزرع والضرع ، وحتى تبعد شبح المجاعات القاتلة . واتفقوا أن يحيوا ثالث ذكراها في الخامس عشر من آب ، وهو اليوم الذي رحلت فيه مريم عن هذا العالم وعرجت إلى السماء ، ولأنه كذلك اليوم الذي أتت فيه بالمعجزات والذي تينع فيه الثمار على أشجارها . . .

ولقد أشهدتني مريم السعيدة ، أنا ويوحنا الذي يدعو إلى الله ، كل الذي رأته بين يدي المسيح مما لا أستأهل نعماه . وقالت لي :

احتفظ بهذه الكلمات وزدها على الكتب التي كتبتها قبل أن ترحل عن هذه الفانية فلا بد أن سيحتاج إليها الناس ولا بد أن يغمرهم الفرح بقراءتها فيحمدوا الله ويقدسوا اسمه واسمي وإن كنت لا أستأهل هذا التقديس . وقال لي : يا يوحنا يصاب الناس في آخر الزمان بالحروب والمهالك والمجاعات والمخاوف بما جنته أيديهم من آثام وبما شحت به أنفسهم من صالحات . يا يوحنا تبتلى الأرض في آخر الزمان بالمصائب والمكاره ، ولن ينجو منها إلا المتواضعون الذين يحتقرون أنفسهم في هذا العالم ويكرهونها ، ولن ينجو إلا الذين يعملون الصالحات خالصة لوجه الله ويخافون الله ويتراحمون فيما بينهم . في ذلك الزمان يجيء المسيح . . .

وكانت مريم السعيدة تناديني : يا ابني ، وأُجيبها : « آه يا أمي . السلام عليكِ ، ولتحل بركتكِ أينما نظرتِ فيسّري للناس طريق العدالة وسبيل الحق واجعلي محبة الله أبدية في قلب آدم وذريته الذين خلقهم الله ، وردي عن الناس بفضل الله ورحمته أعداءهم وما يؤذيهم .

وأجابتني مريم السعيدة : آمين .

إنجيل مريم المجدلية

أول ما يلفت النظر في « إنجيل مريم المجدلية » أنه ينفي الأساس الذي قامت عليه المسيحية التاريخية ، وهو عقيدة الإيمان بالخطيئة الأصلية . وكانت الكنيسة في لاهوتها قد جعلت هذه الخطيئة الأصلية مبرراً جوهرياً لمجيىء المسيح (عليه السلام) حيث تقول الكنيسة أنه « ابن الله الوحيد » أرسله إلى الأرض لخلاص البشرية من تلك الخطيئة . بذلك يترتب على نفي الخطيئة الأصلية تقويض الأركان الثلاثة الباقية من العقائد المسيحية وهي الفداء والخلاص والصلب .

في هذا « الإنجيل » يقول المسيح عليه السلام لمريم المجدلية حين تسأله عن الخطيئة الكونية ، خطيئة آدم التي تقول الكنيسة أن أبناءه يتوارثونها جيلاً بعد جيل : « ليست هناك خطيئة » ، بل إنه يربط مفهوم الخطيئة بما يعمله كل إنسان ، أي بحريته واختياره كأن يزني أو يسرق ، وينفي أن تكون هذه الخطيئة قدرية متوارثة في الأرحام والأصلاب كاللعنة التي لا يلد الإنسان إلا بها .

والأمر الثاني الذي يلفت النظر في هذا الإنجيل هو أن المسيح عليه السلام يشير إشارة واضحة إلى أن له كتاباً وشريعة ، وأن كتابه هو الإنجيل ، وأن شريعته يجب تطبيقها . وكما هو معروف فقد اختفى إنجيل المسيح عليه السلام واختفت معه شريعته ، بل إنها

تزعم أن فكرة « إنجيل المسيح » فكرة إسلامية وضعت انطلاقاً من مفهوم الوحي الإلهي إلى الأنبياء والرسل .

أخطر ما في « إنجيل مريم المجدلية » هو حديثه عن المسيح « ابن الإنسان » ووصفه للذين ينكرون الطبيعة الإنسانية للسيد المسيح بأنهم وثنيون يؤلهون المسيح : « كيف نمضي إلى من يعبد الأوثان وندعوهم إلى إنجيل ابن الإنسان ومن سينجينا منهم بعد أن لم ينج من كيدهم ابن الإنسان » .

وواضح من النص كله أن كاتبه متأثر بالفلسفة اليونانية ، وأنه يلجأ إلى بعض اصطلاحاتها ومفاهيمها فيما لا نجده عادة في الأناجيل التقليدية إلا في كلام بولس أحياناً ، وخاصة عندما يدعو الأثينيين . إن أول سؤال تسأله مريم المجدلية للسيد المسيح : بأي عين يرى النائم رؤياه ؟ ويجيب المسيح : بعين العقل الأولى للكون .

وعلى الرغم من أن هذا « الإنجيل » اكتشف في مكتبة « نجع حمادي » فإن أصله مكتوب باليونانية كمعظم الأناجيل المتداولة وغير المتداولة . وهنالك الآن نسختان منه : واحدة باليونانية والثانية بالقبطية . والنسخة القبطية أحدث من اليونانية (المكتوبة في نهاية القرن الأول) ، وتختلف عنها قليلاً .

ومريم المجدلية امرأة كانت خاطئة، وتختلف الأناجيل في نسبها ، غير أن المتفق عليه أن السيد المسيح أنقذها من الرجم فآمنت به وغسلت قدميه الكريمتين بالعطر ، وتابت . ويُقال إن المسيح عليه السلام كان يحبها ، ويفضلها على أتباعه . أما الكنيسة فقد نسبت إليها معجزات كثيرة بعد موتها .

مختارات

. . . وقال لها المخلص : « إن كل الطبائع والأعراض والخلائق تسكن بعضها ، ولسوف تشهد معادها إلى نشأتها الأولى وتؤوب مادتها إلى أصل طبيعتها ، ألا فليسمع كل ذي أذنين » .

وقال له بطرس : « ما دمت قد شرحت لنا كل شيء قل لنا ما هي خطيئة العالم ؟ » .

وقال له المخلص : « ليست هنالك خطيئة ، لكنكم تخطئون حين تزنون . إن الزنى هو الخطيئة . وقد جبل الإنسان على الخير والصلاح ، لا تستثنى من ذلك نفس واحدة ، لكي تثوب إلى جبلتها الخيرة » . ومضى المخلص يقول : « من أجل ذلك تمرضون ، ثم تموتون . . . فاعتبروا يا أولي الألباب . إن الجسد قد أطلق هذا الشغف الجامح ، شغفاً مغايراً لطبيعة الإنسان وجبلته . وهذا ما أثار كل هذا الإضطراب والتنازع داخل الجسد . لهذا أقول لكم : تشجعوا وغالبوا ، وحين تعوزكم الشجاعة اعتبروا . ألا فليسمع كل ذي أذنين » .

وحين انتهى المخلص من كلامه حيّى حوارييه وألقى عليهم

السلام : « السلام عليكم . وتقبلوا سلامي ، وحاذروا أن يزلكم أحد عن الصراط المستقيم . إن ابن الإنسان معكم (إني معكم) فانطلقوا وبشروا بالإنجيل ، ولا تفرّطوا بأي من الشرائع التي جئتكم بها » . ثم مضى .

وأشفق الحواريون من أحزانهم وبكوا قائلين : كيف نمضي إلى من يعبد الأوثان وندعوهم إلى إنجيل ابن الإنسان ؟ (المسيح عليه السلام ، ويسمونه بابن الإنسان حين يريدون أن يؤكدوا على طبيعته الإنسانية أمام الوثنيين الذين ينسبون إليه الألوهة ويعبدونه) . ومن سينجينا منهم بعد أن لم ينج من كيدهم ابن الإنسان » ؟ ووقفت مريم المجدلية فسلمت على الحواريين وقالت لإخوانها في الإيمان : « لا تهنوا ولا تحزنوا لأن بركته ستصبحكم وترد الكيد عنكم . فلنهلل له بعد إذ هيأنا وجعلنا رجالاً » . وانشرحت قلوب الحواريين بكلام مريم المجدلية ، وراحوا يتفكرون فيما قالته لهم .

وقال بطرس لمريم المجدلية : نعم نعلم يا أختاه بأن المخلص قد أحبك وفضلك على نساء العالمين فقولي لنا ما تتذكرينه من كلامه أو تعرفينه مما لم نعرف ولم نسمع . وأجابت مريم أن سأبدي لكم ما خفي عنكم ، ثم استفتتحت قولها :

« رأيته مرة في المنام فقلت : « هأنذا أراك . وأجابني : مباركة أنتِ إذ لم ترعك الرؤيا . والعقل كنز . وقلت : من يرى الرؤيا ؟ أهي عين الروح أم عين الذهن ؟ وأجابني المخلص : لا هذه ولا تلك ، بل إنها عين العقل الموجودة بينهما . . . (كلام ناقص من المخطوط الأصلي) .

وقلت لروحي : لمْ أركِ نازلة ، لكنني رأيتكِ صاعدة فلماذا تكذبين وأنتِ روحي ؟ وأجابتني : رأيتكَ ولم ترني ، ولم تعرفني ، وتزينت بي ولم تعرفني . وحين أتمت كلامها مضت ترقص طرباً . ثم جاءت الروح إلى القوة الثالثة التي تسمى بالجهل . وسألتها قوة الجهل وقالت : أين تمضين وأنتِ مجبرة على الشر ومسيرة ؟ وقالت الروح : لقد أُجبرت فلم أذعن . ولم يعترفوا بي لكنني اعترفت بأن كل ما عليها فان وأن كل ما في السموات والأرض إلى زوال .

ولما انتصرت الروح على القوة الثالثة ارتفعت فرأت القوة الرابعة التي ظهرت لها بسبع صور : صورة الظلام ، وصورة الشهوة ، وصورة الجهل ، وصورة التوجس من الموت ، وصورة مملكة الجسد ، وصورة جنونه ، وصورة غضبه . وكانت الصور السبع تسأل الروح : من أين جئتِ يا قاتلة الناس ، وأين تمضين يا عابرة الفضاء ؟ أجابت الروح : كل ما يلجمني فإلى فناء . وكل ما يحدق بي فإلى انكسار . انطفأت شهوتي ومات الجهل ، وهأنا تحررت من عالم ، ونجوت من عالم ، ودخلت في ملكوت السماء ، وكسرت أغلال النسيان . ولسوف أبلغ باقي الزمان وأنفذ إلى السرمدية بصمت . . . » .

وهنا سكتت مريم المجدلية لأن كلام المخلص انتهى . وعندها قال اندراوس لإخوانه الحواريين : « لكم أن تعتقدوا ما شئتم فيما قالته ، لكنني أشك في أن يكون المسيح قد تفوه بمثل هذا الكلام . وهذه في رأيي معتقدات غريبة . وقال بطرس ما قاله أندراوس ، ثم تساءل : هل صحيح أن المخلص تحدث مع امرأة كل هذا الكلام بدون علمنا ؟ ولماذا لم يعلن ذلك على الملأ ؟ هل نصدق ما قالت ؟ وهل كان المسيح يفضل مريم المجدلية علينا ؟ .

ولما سمعت مريم المجدلية ذلك بكت ، وقالت لبطرس : يا أخي بطرس هل تظن بأنني افتريت ذلك وكذبت على لسان المخلص ؟ وقال لاوي : إنك يا بطرس تجادل هذه المرأة كأنك تجادل عدواً . أما إذا أراد المخلص أن يكرمها فمن أنت حتى تنكر عليه ذلك ؟ كان المخلص يعرفها حق المعرفة لهذا أحبها وفضلها علينا . فلنستحي من أنفسنا ، ولنتوجه إلى الإنسان الكامل فينا ، ولنحاول بلوغه كما أوصانا .

ومضى كل حواري إلى غايته ، وراحوا يدعون .

فهرس

الأصول الوثنية للمسيحية

هذا الكتاب الرابع من سلسلة [من أجل الحقيقة] ، شهادات ثمينة قدمها لنا نخبة من ألمع مفكري الغرب ، ينتمون إلى بلدانٍ مختلفة ومذاهب شتى ، ويتناولون المسيحية من منطلقات علمية متنوعة ، لكنهم جميعاً يخلصون إلى نتيجة واحدة هي :

« إن المسيحية التي يؤمن بها مسيحيو اليوم ديانة مختلفة عما جاء به السيد المسيح ـ عليه السلام » .

وأجمع هؤلاء المفكرون أن أركان المسيحية الجديدة وعقائدها وصلواتها وشعائرها تأثرت أو تحدرت من الديانات الوثنية التي كانت سائدة قبل ظهور المسيح ـ عليه السلام ـ أو في أيامه . وقد نقلها المؤمنون الجدد من ديانتهم الوثنية فأقرتهم عليها الكنيسة ، ثم تبنتها وجعلتها رموزاً تأويلية ملفقة ترضيهم وتلبس على غيرهم .

منشورات المعهد الدولي للدراسات الانسانية